

## الفصل الثاني

# وسائل الدعوة إلى الله

- أولاً: أخلاق الداعية وصفاته.
- ثانياً: الكون بآياته داع إلى الله وهاد إليه.
- ثالثاً: سنن الله في خلقه.



## أولاً: أخلاق الداعية وصفاته

تمهيد..

الدعوات كما تتوقف على صِدْقِهَا في ذاتها، وتلبيتها حاجة الناس إليها، وموافقتها لفطرهم.. فإنها تتوقف - كذلك - على الإنسان الممثل لها، والذي يكون - في سلوكه - صورةً مُعبرةً عنها (( ومُعَلِّمٌ نَفْسَهُ ومؤدبها أحقُّ بالإجلال والتفضيل من مُعَلِّمِ النَّاسِ ومؤدِّبهم )).

ولا شيء يصرف الناس عن الاستجابة لما يُدعون إليه كالتبائن بين قول الداعية وفعله.

إن هذا التبائن يصد الناس، ويجلب مقت الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾<sup>(١)</sup>

وعندما تقوم دعوة يسأل الناس - ابتداءً - عن أخلاق الداعية، ويتطلعون إلى معرفة شأنه؛ لأن الناس بفطرهم لا يفتعلون بين سلوك الداعية وبين دعوته، وهم بما وبه يُخاطبون ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتَهُكُمْ عَنْهُ﴾<sup>(٢)</sup> وتشتدُّ حاجة الناس إلى معرفة الداعية وصفاته بقدر ما تكون عليه دعوته من تأثير في شئون الناس وتحويل لواقعهم.

ومن هنا كانت عناية الناس بمعرفة أحوال الرسول ﷺ وصفاته، على صورة لم تُعهد من قبل ولا من بعد؛ لأن دعوته ذات تأثير في واقع ومصير.

(١) الصف: ٢، ٣.

(٢) هود: ٨٨.

روي البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - أن أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرْقَلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ - وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّامِ - فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادًّا فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكَفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءٍ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟  
فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا.

فَقَالَ: أَذْنُوهُ مِنِّي، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَّبَنِي فَكَذَّبُوهُ.

يقول أبو سفيان: فَوَاللَّهِ، لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْتِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَّبْتُ عَنْهُ. ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ:

كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ - قَطُّ - قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ؟ قُلْتُ: بَلْ ضَعْفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيْزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخِطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ يَعْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ، لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا.

قَالَ: وَلَمْ تُمَكِّنِي كَلِمَةً أَدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالِكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِحَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَتَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتَّقُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرَّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.. فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتِسِي بِقَوْلِ قَبْلَ قَبْلُهُ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.. قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.. فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَشَرَّافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاءُ هُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ ضُعَفَاءَ هُمْ اتَّبَعُوهُ.. وَهُمْ أَتْبَاعُ الرَّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَّرِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ.. وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَّرِيدُ أَحَدٌ سَخَطَةَ لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا..

وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.. وَكَذَلِكَ الرَّسُولُ لَا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ: بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَأَكُمْ عَنِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ..

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ لَتَحَشَّمْتُ<sup>(١)</sup> لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَعَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ<sup>(٢)</sup>»

أرأيت كيف عرف "هرقل" دعوة الحق من سيرة الرسول ﷺ وصفاته، وقد اتخذ من هذه السيرة، ومن خصائص الدَّعْوَةِ - حين عرفها - دليلاً على الظهور والامتداد « فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ »

\* \* \*

إن ما فعله "هرقل" هو داعي الفطرة عند الناس جميعاً، ولا يمنعهم صدق إيمانهم وبقينهم من معرفة الأحوال والصفات، بل يزيد الإيمان من تطلعهم؛ طلباً للقدوة، وتحقيقاً للأسوة.

عن الحسين بن علي - رضي الله عنهما - قال: « سألت أبي قلت: كَيْفَ كَانَتْ سِيرَتُهُ ﷺ فِي جُلُوسَاتِهِ؟ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ، سَهْلَ الْخَلْقِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَّابٍ، وَلَا فَحَّاشٍ، وَلَا غِيَّابٍ، وَلَا مَدَّاحٍ، يَتَعَاظَلُ عَمَّا لَا

(١) أي تكلفت.

(٢) رواه البخاري.

يَسْتَهْيِي، وَلَا يُؤَسُّ مِنْهُ، وَلَا يَحِيبُ فِيهِ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: الْمِرَاءِ، وَالْإِكْتَارِ، وَمِمَّا لَا يَعْنِيهِ. وَتَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: كَانَ لَا يَدُمُ أَحَدًا، وَلَا يُعِيرُهُ، وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا رَحًا ثَوَابُهُ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلْسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، وَلَا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ، مَنْ تَكَلَّمَ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثُ أَوْلِيَتِهِمْ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْحَفْوَةِ مِنْ مَنْطِقِهِ وَمَسْأَلَتِهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ أَصْحَابُهُ لَيْسَتْ حَلِيبُ نَهْمُهُمْ، وَيَقُولُ: إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ الْحَاجَةِ يَطْلُبُهَا فَأَرْشَدُوهُ، وَلَا يَقْبَلُ الشَّاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يُحَوِّزَهُ، فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ» (١)

وأنت واحدٌ من ذلك ما تَقَرُّ به عينك، فما من شيءٍ - من أمرٍ رسول الله ﷺ في خلقٍ أو خلقٍ - إلا وامتدَّ إليه الوصفُ بعنايةٍ فائقةٍ؛ لشدةِ التعلقِ به، وبخالصِ الحبِّ له، حتى غدت حياته ﷺ كلها معلومةً للناس لا يخفى منها شيءٌ، أي شيءٍ.

في البيت زوجاتٌ يُحدِّثُنَ عن كُلِّ ما يقعُ منه، في أخصِ شئونه من: غُسله، ووضوئه، ونومه، ومعاشرته لأزواجه، ومأكله، ومشربه، وما يدور في بيته من شئون، وما يُعدُّ من طعام، وما يُوقَدُ من سراج.. ما يلبسه، وما يتطيَّبُ به، وهيئة فراشه، ومداعبته لأزواجه، وملاطفته لأهل بيته.. ذكره لربِّه، وقوفه في الصلاة بين يديه.. ما يتلوه من قرآن، وما يواظبُ عليه من سنن، وما يحرصُ عليه من نوافل.

وفي خارج البيت، حيث الأعين ترصده، والقلوبُ تتطلعُ إليه، والنفوسُ - دائماً - مشوقة لرؤيته، لا يكاد البابُ يُفتح، ولا يكاد رسولُ الله ﷺ يخرج إلى الناس - في أيِّ شأنٍ - حتى نرى مَنْ يُسجِّلُ كُلَّ شيءٍ عنه، حتى حركات يده، وقسمات وجهه، وهيئة مجلسه وتبسمه !!

(١) الشمائل المحمدية للترمذي.

يُسحِّلون ما ينطقُ به، وما يصدرُ عنه من: رضا أو غضب، أو قيامٍ أو قعودٍ، أو أمرٍ أو نهي.. والصحابة - جميعاً - حريصون على أن يروه، ويسمعوا منه بقدر حفاوتهم به، وحرصهم على التمسك بسنته، والاهتداء بهديه.

إن صحابة رسول الله ﷺ لم يتركوا شأنًا من شئونه إلا وتحدثوا عنه، ولم يُعرف - في تاريخ البشر قاطبةً - نبيٌّ من الأنبياء اشتهرت سيرته، وعُرفَ كلُّ شيءٍ عنه، مثل ما تمَّ لحاتم الرُّسل ﷺ؛ لتكون سيرته نبراساً للمخلوقِ جميعاً في كلِّ زمانٍ ومكان.

والناس - وهم يتعلقون بالمزيد من أخلاقِ الرسول ﷺ - يجدون من يُلهم على الأصل الجامع لبيان أخلاقه ﷺ وهو "القرآن الكريم"

سُئِلَت السيدةُ عائشةُ - رضي الله عنها - عن خُلُقِ رسول الله ﷺ، فقالت: « كان خُلُقَه القرآن »<sup>(١)</sup>

وامتدَّ الأمرُ من بعد رسول الله ﷺ إلى صحابته، فاعتنى الناس بسيرتهم؛ لأنهم موطن الأسوة والقدوة من بعده، كما يمتدُّ إلى كلِّ داعٍ إلى أمرٍ ذي بالٍ يتصل بحياة الناس وأحوالهم.

ويذهب الناس، ويبقى من بعدهم ذِكْرٌ يتفاوت بتفاوت أعمالهم.

والدعاةُ الصادقون المخلصون لا يقفُ تأثيرهم في عصرهم وزمنهم، بل يمتدُّ من بعدهم، فإذا ذُكروا كان للناس في ذِكْرهم عِبْرٌ وعظات.

وكم ناس تأثروا بأناس لم يروه، ورأوا في سيرتهم مثلاً صالحة لهم.

ولا يُوارى من حياة الصالحين إلا أجسادهم، أما أعمالهم الصالحة وكلماتهم

(١) دلائل النبوة للبيهقي.

الطيبة فتصعد وتُرفَع وتُذَكَّر من بعدهم.

لذا كان من أهم وسائل الدَّعْوَة إعداد الدعاة على صورة تتناسب مع فطرة الدَّعْوَة نفسها، بأن يكونوا مثلاً حَيَّةً معبَّرَةً عنها، سواء في سُمُو منطقتهم، أو طُهرِ سلوكهم وحكمتهم، أو سَمَتهم وبعدهم عما يُنفِّرُ الناسَ منهم.

ونستطيع - بعون الله - أن نُجمِلَ صفاتِ الدَّاعِيَةِ في أمورٍ تُنبئُ عمَّا وراءها.

\* \* \*

## ١- إيمانه بما يدعو إليه

ومن أولى الصفات التي ينبغي على الداعية أن يتحلّى بها: إيمانه بما يدعو إليه.  
وكذلك كان الرُّسُلُ - صلوات الله وسلامه عليهم - آمنوا، ثم دعوا الناس إلى ما آمنوا به، وأيقنوا فكان يقينهم هُدىً لغيرهم.

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>

وبغير هذا اليقين لا يستطيعُ الداعيةُ أن يُواجهَ فتنةَ الحياة، ويُجابهَ أعاصيرَ الإغراء والبلاء، فكم من ناسٍ لم يثبتوا مع فتنة النعمة، وآثروها حين أقبلت.

وأهل اليقين - حيث كانوا - يُبتلون. بمن لا يوقنون ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾<sup>(٤)</sup> وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿

وما أكثر هؤلاء، وما أخبث ما يعمدون إليه من وسائل الكيد والترويض للموقنين.

(١) البقرة : من الآية ٢٨٥ .

(٢) الأنعام : ٧٥ .

(٣) السجدة : ٢٤ .

(٤) الروم : ٦٠ .

والداعية إلى الله واقع - لا محالة - بين الإغراء والبلاء، فلن يشب لأي حال بغير إيمان و يقين.

﴿ الْمَرْءُ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوَأَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (١) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢﴾ (١)

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارًا ﴾ (٢) ﴿٣﴾

\* \* \*

(١) العنكبوت : ١ - ٣.

(٢) محمد : ٣١.

## ٢- ثباته على الحق واستمساكه به

ولا يمكن أن تقوم الدعوة، أو تتحقق بغير هذا الأصل؛ إذ لا ثبات بغير إيمان، ولا استمساك بغير يقين.. وكلاهما من الله تعالى وحده.

﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (١)

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنثِثُ بِهِ فُوَادِكَ ﴾ (٢)

إنه زاد معرفة ويقين، يُلقيه الله تعالى في قلب من تجرد له، وابتغى مرضاته.

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ <sup>٣</sup> وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ

لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ <sup>٤</sup> وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (٤)

والمعرفة لا تُستمد إلا من كتاب الله ﷻ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ <sup>٥</sup>

فَبِهْدَانِهِمْ أَقْتَدَ ﴾ (٥)

(١) الإسراء : ٧٤.

(٢) هود : من الآية ١٢٠.

(٣) إبراهيم : ٢٧.

(٤) الفرقان : ٣٢.

(٥) الأنعام : من الآية ٩٠.

وبغير الصدق مع الله لا يُرجى للنفس ثبات ولا استقرار ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

﴿إِنْ تَصَبَّرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (١)

وعندما يقوم الثبات على أعمدة راسخة من المعرفة واليقين، والصدق والتجرد، لا بُدَّ أن تتداعى أمامه وسائل المكر والخداع، وأن يتلاشى زبد الباطل في الأرض، ويمكث ما ينفع الناس.

وأنت واجدٌ - في كل ما ينفع - ثبات عناصره، وأطراد نتائجه، وبغير عنصر الثبات فيه لا يمكن أن يؤدي وظيفته، أو يحقق منفعته، وأيُّ تغَيُّرٍ يعتريه لا بُدَّ أن يؤثر في النتائج، بل قد يؤدي إلى خروجه عن حقيقته، ودخوله إلى مسمى آخر غير ما عُرفَ به، أو خُلِقَ له.

وأودُّ أن أقفَ عند هذه الصفة - بالذات - وقفةً متأنيةً، قد تُتيح لنا تبيين جوهرها؛ حتى لا يختلط بها غيرها، ويدخل فيها ما ليس منها.

الثبات المنشود مع الدعوات لا يصفو جوهره، وتحدّد معالِمه إلا في نور الإخلاص والتجرد لله ﷻ، وهنا يُعرف أنه اعتماد على الله أولاً، وقبل كل شيء.

وكيف يعتمد على الله من لا يعرفه؟ أو يرجو تأييده من لا يُخلص له ويرجوه دون سواه؟

والثبات - هنا - له خصائص الماء، فالماء ثابتٌ بعناصره وصفاته، متحركٌ بفطرته.. إن سدَّت الصخور مجراه ارتفع صاعداً؛ ليهبط من فوقها، ويمتدُّ لتحقيق أسباب الحياة.

(١) محمد : ٧.

وهو يُعطي النور والضياء، ومع السدود طاقة كهرباء.

والناسُ يصنعون السُدود، وقد عرفوا فطرة الماء، فيمضي - بعد حبسه - هادراً لا تُغيّره السدودُ عن فطرته، بل تكشفُ عن طبيئته وجوهره. إنه الماء، وفيه نارٌ ونورٌ، ولولا الضيق ما شعَّ نورُه، وبغير الضوايق والسدود لا تُلمس طاقته.

فسبحان من جعله - بإذنه - باعثَ حياةٍ، وقد عرف الناسُ أنه لا حياة بلا نورٍ ونار. فالثبات ليس جموداً؛ إذ الجمودُ موتٌ، وليس ثباتاً. الثباتُ حركةٌ ذات خصائص لا تتميع..

إنه حركة تُجابه العدوَّ في مواقف متعددة، فترى - بخصائصها - تُجابه في مجال الحاجة، فتميز بمنطقها الغالب بسلطان الدليل، وتنفذ إلى نفسه فتحاكمه إلى فطرته.

تنشد إسلام القلب بمكارم الأخلاق، بعد أن خاطبت العقل بالحجة والبرهان.

فلا يبقى لعدوّها منفذٌ للطعن فيها، وقد أعطته - من فضائلها وحكمتها - ما لم يجد بعده إلا أن يُعادي بلا حجةٍ، أو يُطاول بالبرهان والحجة.

ولا يحقق ذلك إلا ثباتها بخصائصها، وتميُّزها بمقوماتها، واختبارها بصنوف من البلاء يكشف عن هذه الخصائص، ويُظهر هذه المقومات.

وذاك هو موطنُ انتصارها.. أن يراها الناس حقيقةً في نفوس، وأن يُصروها في تجربةٍ تكشف عن معدنها.

ولذا كان لا بُدَّ من ابتلاء الناس بعضهم ببعض؛ لثرى فيهم.

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَتْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بِبَعْضِ الْوَالِدِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١٦١﴾ سَيَجْعَلُ اللَّهُ مِنْ أَمْرِهِ حَيْثُ يَشَاءُ ﴿١٦٢﴾ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (١)

أخرج الطبراني عن عبد الله بن سلام، قال: « إن الله لما أراد هدى زيد بن سَعْنَةَ، قال زيد بن سَعْنَةَ: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجهه ﷺ حين نظرت إليه، إلا اتنتن لم أخيرهما منه: يسبق حلمه (١) جهله، ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أظف له لأن أخالطه، فأعرف حلمه من جهله. قال زيد ابن سَعْنَةَ: فخرَج رسول الله ﷺ يوما من الحُجرات ومعه علي بن أبي طالب ﷺ فاتاه رجل على راحلته (٢) كالبُدوي، فقال: يا رسول الله، إن بصرى - قرية بني فلان - قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدا، وقد أصابتهم سنة (٤) وشدة وقحوط من العيث (٥) فأنا أخشى - يا رسول الله - أن يخرجوا من الإسلام طمعا كما دخلوا فيه طمعا، فإن رأيت أن تُرسل إليهم بشيء، تُعينهم به فعلت، فنظر إلى رجل إلى جانبه، أراه عليا ﷺ فقال: يا رسول الله، ما بقي منه شيء، قال زيد بن سَعْنَةَ: فدنوت إليه، فقلت: يا محمد، هل لك أن تبعني تمرا معلوما من حائط (٦) بني فلان إلى أجل كذا وكذا؟ فقال: لا يا يهودي، ولكني أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا، ولا تسمى حائط بني فلان، قلت: بلى، فبايعني، فأطلقت همياني (٧) فأعطيته ثمانين مثقالا (٨) من ذهب في تمر معلوم إلى

(١) محمد: من الآية ٤، والآية ٦.

(٢) الحلم: الأناة وضبط النفس.

(٣) الراحلة: البعير القوي على الأسفار والأعمال.

(٤) السنة: الضحط والحذب.

(٥) العيث: المطر الخاص بالخير.

(٦) الحائط: البستان أو الحديقة وحوله جدار.

(٧) هميان: كيس يجعل فيه النفقة، ويُشد على الوسط.

(٨) المثقال: وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم.

أَجَلَ كَذَا وَكَذَا، فَأَعْطَاهَا الرَّجُلَ، فَقَالَ: اغْدُ عَلَيْهِمْ فَأَعْنِهِمْ بِهَا.

فَقَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ: فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ مَحَلِّ الْأَجَلِ (١) بِيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ، أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ وَرَدَّائِهِ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهِ غَلِيظٍ (٢) فَقُلْتُ لَهُ: أَلَا تَقْضِيَنِي يَا مُحَمَّدُ حَقِّي؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكُمْ بِنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِمَطْلٍ (٣) وَلَقَدْ كَانَ لِي بِمُخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ.

وَنَظَرْتُ إِلَى عُمَرَ، وَإِذَا عَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَالْفَلَكَ الْمُسْتَدِيرِ، ثُمَّ رَمَانِي بِبَصَرِهِ، فَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَسْمَعُ، وَتَصْنَعُ بِهِ مَا أَرَى؟! فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلَا مَا أَحَادِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ.

وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ فِي سُكُونٍ وَتَوَدَّةٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ، أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ (٤) إِلَيَّ غَيْرِ هَذَا، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التَّبَاعَةِ، أَذْهَبَ بِهِ يَا عُمَرُ، وَأَعْطَاهُ حَقَّهُ، وَزِدَهُ عِشْرِينَ صَاعًا (٥) مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رَوَّعْتَهُ. (٦)

قَالَ زَيْدٌ: فَذَهَبَ بِي عُمَرُ ﷺ فَأَعْطَانِي حَقِّي، وَزَادَنِي عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ يَا عُمَرُ؟ فَقَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا رَوَّعْتُكَ، قُلْتُ: وَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ؟ قَالَ: لَا، مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَنَا زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ، قَالَ: الْحَيْرُ (٧) قُلْتُ: الْحَيْرُ، قَالَ: فَمَا دَعَاكَ أَنْ فَعَلْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا فَعَلْتَ وَقُلْتَ لَهُ مَا قُلْتَ؟

(١) الأجل : هو الوقت المضروب المحدود في المستقبل.

(٢) الغلظة : الشدة والاستطالة والجماء.

(٣) المعاظة : تأجيل موعد الوفاء بالدين مرة بعد الأخرى.

(٤) أحوج : أشد احتياجاً.

(٥) الصاع : مكيال المدينة، تقدر به الحبوب.

(٦) روعته : أي أفرعته.

(٧) الحير : العالم المتبحر في العلم.

قُلْتُ: يَا عُمَرُ، لَمْ تَكُنْ مِنْ عِلْمَاتِ النَّبِيِّ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إِلَّا اثْنَتَيْنِ، لَمْ أُخْبِرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلَا يَزِيدُهُ الْجَهْلُ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا، فَقَدْ أُخْبِرْتُهُمَا، فَأَشْهَدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَأَشْهَدُكَ أَنْ شَطْرَ<sup>(١)</sup> مَالِي - وَإِنِّي أَكْثَرُهَا مَالًا - صَدَقَةٌ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ؛ فَإِنَّكَ لَا تَسْعُهُمْ. قُلْتُ: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ.

فَرَجَعَ عُمَرُ وَزَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ زَيْدٌ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ. وَأَمِنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَبَايَعَهُ وَشَهِدَ مَعَهُ مَشَاهِدَ كَثِيرَةً، ثُمَّ تُوْفِيَ زَيْدٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ<sup>(١)</sup>

\* \* \*

وهكذا عبرت الدعوة عن نفسها في موقف وسلوك « يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلَا تَزِيدُ شِدَّةَ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا »

إنه ثبات حركة وحياء، حركة صالحة مُصلحة، وحياء تقوم على سنن ثابتة ينتفي معها العبث والباطل، ولذا فإن الكلمة للدعوة - دائماً - بأخلاقها وفضائلها، والدعوة - بثبات خصائصها - تسبق السيف بشجاعة حاملة، وهي تحكُم السيف، فلا يرفع إلا بقانونها، ولا يُخفَضُ إلا بقانونها.

وهذا التميز في ثبات صفات الدعوة في نفس الداعية - أو قل ثبات الداعية على هذه الصفات - هو الذي يُحقق للدعوة انتصارها، ويُتيح للناس معرفتها، وهم يرونها حياة في نفوس، وأصالة في معاملة وسلوك.

(١) الشطر: النصف.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، وأخرجه الحاكم في المستدرک.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ  
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١)

ولذا فإن الاتساق في تربية متجانسة متألّفة - تخضع كلّها لمنطق الدّعوة الفطري  
الثابت - أمرٌ أساس في إيجاد أمةٍ تدعو إلى الخير، وتأمّر بالمعروف، وتنهى عن المنكر.

ومن العيب أن تتناقض وسائلُ هذه الأمة، وهي إلى التهلكة إن تعارضت  
مقاصدُها، ولا ضمان لها إلا باتساق الوسائل، واتفاق المقاصد؛ فإن الأمم تتلمس  
مواطن الضعف في أعدائها.. وأفتك داءٍ بالأمم أن يتعارض أبنائها أو يتناقضوا.

ولن تكون وحدة الأمة في أجساد مترابطة ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ (٢)  
أو بيانات تعبّر عن موافقات، بينما الواقع يعبر عن تناقض واختلاف، وإنما وحدتها في ثبات  
صفاتها، واتحاد غايتها؛ ليسمع الناس - جميعاً - كلمةً واحدةً تُنسب إلى شرف هذه الدّعوة  
وأصالتها كما ينتسب الضوء إلى مصدره مهما اختلف الزمان أو المكان، وكما يعبر الأكل  
عن شجره ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا  
كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣)

\* \* \*

من هنا تستطيع الدّعوة إلى الله أن تُصارع أعداءها وهي واثقة، وأن تُخاطبهم وهي  
واثقة، وأن تُجالسهم وهي واثقة، وأن تُفاوضهم وهي واثقة، وأن تُعاهدهم وهي واثقة.

(١) الأحزاب : ٢١ .

(٢) الحشر : من الآية ١٤ .

(٣) الأعراف : ٥٨ .

وتتنفي العلل جميعها من نفوس الدعاة - أو الأمة الداعية - عندما تتحقق الأسس الموضوعية للدعوة في النفوس، فلا تُرى إلا بها، ولا تنشُد عزّاً في غيرها، وهي تُوقن أنّها ما لم تنتصر بفضلها، لم تغلب بقوتها.

وعندما تُجابه الأمة - صاحبة الرسالة - أعدائها، وتكون الدّعوة بفطرتها هي التي تُسيطر على شئونها، ترى التميّز في كلّ شيء، في المقدمات والنتائج على السواء.

ولنقف قليلاً عند أيام "القادسية"؛ لنرى ما حققته الدّعوة إلى الله في نفوس العرب، وقد كانوا قبلها على أسوأ حال، وكيف استطاعوا بها أن يخرجوا إلى الدنيا سادة وقادة.. يسودون بالحق، ويُفودون بالعدل.

إن الذي يتأمّل المقدمات يُوقن بالنتائج..

إن الذي يتأمّل الفارق بين ناسٍ وناسٍ - ناسٍ انتصر الحق في نفوسهم، وزهق الباطل، وناسٍ يروّون أنفسهم بزيّنتهم ومتاعهم - يُوقن أن تحوُّلاً لا محالة واقع.

ومن بداية الأمر إن أنت جُلّت بنظرك هنا وهناك وجدت النقيضَ أمام النقيض، وبضدها تتميّز الأشياء.

وتستطيع أن تُدرك سرّ ثباتِ النفوس وهي تُواجه عدوّها، وأنت ترى ثباتِ الدّعوة وهي تُعبرُ في نفوسهم عن نفسها.

اختار عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه سعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنه أميراً على حربِ العراق بعد مشورةٍ، وأوصاه قائلاً: (( يا سعد بن وهيب، لا يُعرِّتكَ من الله أن قيلَ خال رسول الله صلى الله عليه وآله وصاحبه؛ فإن الله تعالى لا يمحو السيئَ بالسيئِ، ولكن يمحو السيئَ بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحدٍ نسبٌ إلا طاعته، شريفهم ووضعهم في ذات الله سواء، الله ربُّهم وهم عباده، يتفاضلون بالعاقبة، ويُدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر

الأمر الذي رأيت النبي ﷺ - منذ بُعث إلى أن فارقنا - فالزمه؛ فإنه الأمر. هذه عظمي  
إياك، إن تركتها ورغبت عنها، حبط عملك، وكنْتَ من الخاسرين» (١)

تأمل كل كلمة من هذه الكلمات؛ فإنها مُنبئة عما حدث في هذه النفوس من  
تحول، بحيث لم يعد للهوى فيها نصيب.. قد ثبتت في اتجاه واحد، فتوحّدت بشاتها،  
وثبتت بوحدتها.

إن الاتجاه كله إلى مرضات الله، فلا شيء يشغل النفوس عنه، أو يثبط همّتها في الفرار إليه.

قد فرغت من العوائق، وتخلّصت من الشوائب، وخلصت لبارئها، فنطقت دعوة  
الله فيهم، فلم يُسمع لغيرها صوت، وعبروا وسلوكهم عنها فكانت لهم الحسب  
والنّسب، فواجهوا الخطوب بثبات الفضائل، ونازلوا الأعداء بسلاح الحق، واستفتحوا  
بنيّة الخير، فجاء نصر الله والفتح المبين.

يقول عمر رضي الله عنه لسعد: «إني وليتكَ حربَ العراق، فاحفظ وصيتي؛ فإنك تقدّم  
على أمرٍ كرهه شديد، لا يخلص منه إلا الحق، فعوذ نفسك ومن معك الخير، واستفتح  
به، واعلم أن لكلّ عادة عتاداً، فعتادُ الخير الصبر، فالصبر الصبر على ما أصابك أو  
نابك يجتمع لك خشية الله. واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته، واجتناب  
معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه يُغض الدنيا وحُب الآخرة، وعصاه من عصاه حُب  
الدنيا وبُغض الآخرة، وللقلوب حقائق يُنشئها الله إنشاءً، منها السرّ ومنها العلانية..  
فأمّا العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحقّ سواء، وأمّا السرّ فيُعرف بظهور الحكمة  
من قلبه على لسانه، ومحمية الناس، فلا ترهد في التحبّب؛ فإن النبيّن قد سألوا محبتهم،  
وإن الله إذا أحبّ عبداً حبّبه، وإذا أبغض عبداً بَغضه.. فاعتبر منزلتك عند الله

(١) تاريخ الطبري : ٢ / ٣٨٢، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠٧هـ.

بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك»<sup>(١)</sup>

وشيع عمرُ الناسَ إلى موضعٍ قرب المدينة، ثم قام فيهم خطيباً، فقال:

«إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال، وصرّف لكم القول؛ ليحيي به القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله. من علم شيئاً فلينتفع به، وإن للعدل أمارات وتبشير، فأما الأمارات فالحياء، والسخاء، والهيئ، واللين. وأما التبشير فالرحمة. وقد جعل الله لكل أمر باباً، ويسرّ لكلّ بابٍ مفتاحاً، فبابُ العدلِ الاعتبار، ومفتاحُه الزهد، والاعتبارُ ذكْرُ الموتِ بتذكُرِ الأموات، والاستعدادُ له بتقدّم الأعمال، والزهدُ أخذُ الحقِّ من كلّ أحدٍ قبله حقّ، وتأدية الحقِّ إلى كلّ أحدٍ له حقّ. ولا تُصانع في ذلك أحداً، واكْتَفِ بما يكفي من الكِفَان؛ فإن من لم يَكْفِهِ الكِفَان لم يُغْنِهِ شيءٌ»<sup>(٢)</sup>

وسار سعد ومن معه من جند الله البواسل وكُتِبَ عمر ووصاياه تلاحقه، وكلها فيضٌ من نور هذه الدّعوة التي تقودُ بُدَاهَا حُطَى هؤلاء.

اقترب سعدٌ من مواطن العدو، فبعث عُيوناً إلى أهل "الحيرة" ليعلموا له خبر أهل فارس، فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولّى "رُسْتَم" حربته، وأمره بالعسكره، فكتب بذلك إلى عمر رضي الله عنه.

فكتب إليه عمر رضي الله عنه يقول: «لا يَكْرِبُنكَ ما يَأْتِيكَ عنهم، ولا ما يَأْتُونكَ به، واستعن بالله، وتوكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل المنظرة<sup>(٣)</sup> والرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً<sup>(٤)</sup> عليهم، واكتب إلى في كلّ يوم»<sup>(٥)</sup>

(١) تاريخ الطبري : ٣٨٣/٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) منظرة الرجل : إذا نظرت إليه فأعجبتك.

(٤) وفلجاً : أي نصرأ.

(٥) تاريخ الطبري : ٣٨٩/٢.

ونفذ سعد ما أمر به، وأرسل دُعَاةً إلى الملك، وأنفذهم إليه بالمدائن، فلمَّا دخلوا عليه أمر التُّرجمان بينه وبينهم فقال: سَلُّهُم ما جاء بهم؟ وما دعاهم إلى غَزْوِنَا والوَلُوعِ ببلادنا؟ أمن أجل أَنَا أَجْمَمْنَاكُمْ<sup>(١)</sup> وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فقال "النعمان بن مقرن" لأصحابه - وهو أحد الذين أرسلهم سعد -: إن شئتم أحببتُ عنكم، ومَن شاء آثرته.. فقالوا: بل تكلم، وقالوا للملك: كلامُ هذا الرجل كلامنا.

فتكلم النعمانُ فقال: «إن الله رحمناً فأرسل إلينا رسولاً ليدُلُّنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشرَّ وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلةً إلاَّ صارت فرقتين: فرقة تُقاربه، وفرقة تُباعده، ولا يدخل معه في دينه إلاَّ الخواصُّ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن يبيدَ<sup>(٢)</sup> إلى من خالف من العرب، وأن يبدأ بهم، فدخلوا معه جميعاً على وجهين: مُكرَّةٌ عليه فاغتبط، وطائعٌ أتاه فازداد، فعرفنا جميعاً فضلَ ما جاء به على الذي كُنَّا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يَلِينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف.. فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دينٌ حَسَنٌ الحَسَن، وقَبِيحٌ القَبِيحِ كُلِّهِ، فإن أبيئتم فأمرٌ من الشرِّ هو أهونٌ من آخر شرٍّ من الجزاء<sup>(٣)</sup>، فإن أبيئتم فالمناجزة، فإن أجبتُم إلى ديننا خَلَفْنَا فيكم كتابَ الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قَبَلْنَا ومنعناكم، وإلاَّ قاتلناكم»<sup>(٤)</sup>

وضوح وثقة، وثبات في الدَّعْوَة إلى الله في الكلمة والسلوك..

(١) أجممناكم : أي أرحناكم وانصرفنا عنكم من أحم الماء إذا تركه يجتمع.

(٢) يبيدُ : المراد هنا الحرب.

(٣) الجزاء : بالكسر جمع الجزية.

(٤) تاريخ الطبري : ٣٩١/٢.

إنهم يدعون إلى الله بالكلمة المعبرة عن فطرة الدَّعْوَةِ في نفوسهم، ويدعون إليه حين يراهم على حال لا يتناقض مع دعوتهم، ولا يندُّ عن الطاعة لخالفهم، وحائهم أبلغ من كلامهم، وأشدُّ تأثيراً ودلالة على الحق.

فقال يَزْدَجِرْدُ: «إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى، ولا أقلَّ عدداً، ولا أسوأ ذاتَ بَيْنٍ منكم، قد كُنَّا نوكلُ بكم قَرَى الضواحي فيكفوننا غاراتكم، لا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان غرورٌ لحقكم فلا يغرئكم مناً، وإن كان الجهد<sup>(١)</sup> دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم» فأسكت القوم.

ثم قام "المغيرة بن زرارة" فقال: «أيها الملك، إن هؤلاء رؤوس العرب وجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يُكرمُ الأشرافَ الأشرافُ، ويُعظمُ حقوقَ الأشرافِ الأشرافُ، ويفخّمُ الأشرافَ الأشرافُ، وليس كلُّ ما أرسلوا به جمعه لك، ولا كلُّ ما تكلمتَ به أجابوك عليه، وقد أحسنوا، ولا يحسنُ بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني لأكون الذي يبلغك، ويشهدون على ذلك.

إنك قد وصفتنا صفةً لم تكن عالماً بها، فأما ما ذكرتَ من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منّا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كُنَّا نأكلُ الخنافس والجعلان<sup>(٢)</sup>، والعقارب والحيات، فترى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهرُ الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم.. ديتنا أن يقتلَ بعضنا بعضاً، ويُغيرَ بعضنا على بعضٍ، إن كان أحدنا ليدفنُ ابنته وهي حيّة؛ كراهية أن تأكلَ من طعامنا..

فكانت حالتنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك، فبعث الله إلينا رجلاً نعرفُ نسبته،

(١) الجهد: المشقة، وهو يريد الحاجة والفقير والجوع.

(٢) الجعلان: جمع جعل بفتح الجيم، وهو دابة سوداء من دواب الأرض.

ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبيلتنا، وهو - بنفسه - كان خيرتنا في الحال التي كان فيها، أصدقنا وأحلمنا، فدعا إلى أمرٍ فلم يُجب أحدٌ غير ترّب<sup>(١)</sup> كان له، وكان الخليفة من بعده، فقال وقتلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئاً إلا كان، فقدف الله في قلوبنا التصديق له وأتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول: "إني أنا الله وحدي، لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء، وإلي يصير كل شيء، وإن رحمتي أدرتكم، فبعثت إليكم هذا الرجل؛ لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحللكم داري، دار السلام" فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: "من تابعكم على هذا، فله ما لكم، وعليه ما عليكم، ومن أبي فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون أنفسكم، ومن أبي فقاتلوه، وأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه"، فاختار - إن شئت - الجزية عن يدي وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم، فتنجي نفسك»

فقال يزدجرد: «أتستقبلي بمثل هذا؟ لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم.. لا شيء لكم عندي»

ثم قال: «التوني بوقر من ثراب، واحملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوفه حتى يخرج من باب المدائن، وقال: «ارجعوا إلى صاحبكم، فأعلموه أني مرسل إليكم رستم، حتى يذفنه ويدفنكم في خندق القادسية، ويُكَلِّبُ به وبكم من بعد، ثم أوردوه بلادكم؛ حتى أشغلكم في أنفسكم»

(١) هو أبو بكر الصديق.

ثم قال: « من أشرفكم؟ » فسكت القوم، ثم قال عاصم: « أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء، فحملني » فقال: أكذلك هو؟ قالوا: نعم. فحمله على عنقه، فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلته، فحمله عليها، ثم انجذب<sup>(١)</sup> في السير حتى دخل وصحبه على سعد، وأخبروه الخبر، فقال: « أبشروا فقد أعطانا الله أقاليد<sup>(٢)</sup> ملكهم<sup>(٣)</sup> »

واشتد ما صنع المسلمون على جلساء الملك، وراح "رستم" يسأل الملك عما كان من أمره وأمرهم، وكيف رأيهم، فقال الملك: « ما كنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتهم، دخلوا عليّ وما أنتم بأعقل منهم، ولا بأحسن جواباً منهم، وأخبره بكلام متكلّمهم، وقال: لقد صدقني القوم، لقد وعد القوم أثراً ليدركه أو ليموتنّ عليه، على أني وجدت أفضلهم أحقهم، فقد ذكروا الجزية، فأعطيته تراباً فحمله على رأسه فخرج به، ولو شاء اتقى بغيره وأنا لا أعلم! »

فقال رستم: « أيها الملك، إنه لأعقلهم؛ لأنه أراد أن يفترق القوم بنفسه، فتطير بذلك، وأبصرها دون أصحابه<sup>(٤)</sup> »

رُسل دعوة الله إما أن يعيشوا لها، أو يموتوا عليها.

ويقترّب اللقاء، ويوشك أن يأتي اليوم الذي يكشف فيه عن حقيقة هؤلاء وأولئك، فليست الحرب - في نتائجها - إلا حصاد سنين سبقتها، صيغت فيها الأمم على صورة من الصور، فتأتي الحرب؛ لتكشف عن صدق الولاء لما يعتقد الناس ويؤمنون به.

(١) انجذب: أسرع.

(٢) أقاليد: مفاتيح.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٩١/٢، ٣٩٢.

(٤) تاريخ الطبري: ٣٩٢/٢.

طلب "رُسْتُمْ" من أحد قَوَّاده - بعد أن نَظَّم جيشَه - أن يُصِيبَ له رجلاً من العرب، فأصاب رجلاً دون قنطرة القادسية، فاخطفه، ونفر العرب خلفه، ولكن أحداً لم يدركه، وأدخل الرجلُ على "رُسْتُمْ"، فقال له: « ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ »

قال: « جئنا نطلبُ موعودَ الله »

قال: وما هو؟

قال: « أَرْضُكُمْ، وأبناؤُكُمْ، ودمائُكُمْ، إن أبيتُم أن تُسلموا »

قال "رُسْتُمْ": فإن قتلُنا قبل ذلك؟

قال: « في موعود الله أن مَنْ قُتِلَ مِنَّا قبل ذلك أدخله الله الجنةَ، وأنجزَ لمن بقي مِنَّا ما قلتُ لك »

فقال "رُسْتُمْ": قد وُضِعنا إذاً في أيديكم.

قال: « ويحك يا "رُسْتُمْ"! إن أعمالكم قد وضعتكم، فأسلمكم الله بها، فلا يفرِّتُك ما ترى حولك، فإنك لست تُحاول الإنس، وإنما تحاول القضاء والقدر »<sup>(١)</sup>  
فاستشاط "رُسْتُمْ" غضباً، وأمر به فضربت عنقه.

\* \* \*

دعاة إلى الله لا يُرى منهم إلا الثبات.

ثباتُ الكلمة وهي تمضي فتؤدِّي غرضها دون قصورٍ أو انحراف.

ثبات النفوس وهي تواجه الشدائد، فلا تُساوَم - قط - على ما تعتقده.

(١) تاريخ الطبري: ٣٩٥/٢.

نزل المسلمون بأمرٍ عمرَ ﷺ حين علم أن القوم سيطاؤونهم، نزلوا حدوداً أرضهم، فأغاروا، وأتوا سعداً بالفتح والغنائم.

وسار "رُسُوم" حتى نزل نهر العتيق، وسأيره حتى بلغ قُرب القادسية، ثم طلع موضعاً يُشرف منه على المسلمين، فراسل "زهرة بن الحوية" فخرج إليه، فأراده على أن يُصالحهم، ويجعل لهم جعلاً على أن ينصرفوا عنه، وجعل يقول فيما يقول: « أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، فكنا نُحسنُ حوارهم، ونكفُّ الأذى عنهم، ونولِّيهم المرافقَ الكثيرة، ونحفظهم في أهل باديتهم، فرعيتهم مراعيناً، ونُميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا، وقد كان لهم بذلك معاش » قال ذلك يعرض بالصلح ولا يُصرِّح.

قال له زهرة: « صدقت! قد كان كلُّ ما تذكر، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا طلبتهم، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة، كنا كما ذكرت، يدين لكم من ورد عليكم منّا، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم، ثم بعث الله - تبارك وتعالى - إلينا رسولاً، فدعانا إلى ربِّه، فأجبناه، فقال لنبِيِّهِ ﷺ: إني قد سلطتُ هذه الطائفة على من لم يدين بيدي، فأنا منتقمٌ بهم منهم، وأجعلُ لهم الغلبة ما داموا مُقرِّين به، وهو دينُ الحق لا يرغبُ عنه أحدٌ إلا ذُلٌّ، ولا يعتصمُ به أحدٌ إلا عزٌّ »

فقال له "رُسُوم": وما هو؟

قال: « أما عموده - الذي لا يصلح منه شيء إلا به - فشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى »

قال: ما أحسن هذا، وأيُّ شيء أيضاً؟

قال: « وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى »

قال: حسن، وأيُّ شيءٍ أيضاً؟

قال: « والناس بنو آدم وحواء، إخوة لأب وأم »

قال "رُسُتُم": ما أحسنَ هذا، أرأيتَ لو أني رضيت بهذا الأمر، وأجبتكم إليه ومعى قومي، كيف يكون أمركم؟ أترجعون؟

قال: « إي والله! لا نقربُ بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة »

قال: صدقتني والله. <sup>(١)</sup>

وبدا لرُسُتُم أن يحدثَ رجالَ فارس، وأن يذكرَ لهم ما سمع، فذاكرهم فحَمُوا من ذلك وأنفُوا. فقال: أبعدم الله وأسحقكم.

وبدا لسعد أن يُرسلَ جمعاً من أصحابه دعاءً إلى القوم قبل أن يحدثم القتال، فلما أحضروا لديه قال لهم: « إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم، فما عندكم؟ » قالوا جميعاً: « نَتَّبِعُ ما تأمُرنا به، وننتهي إليه، فإذا جاء أمرٌ لم يكن منك فيه شيءٌ نظرنا أمثلاً ما ينبغي وأنفعه للناس، فكلمناهم به »

فقال سعد: « هذا فعل الحزَمَةِ <sup>(٢)</sup>، اذهبوا فتهيئوا ».

فقال ربعيُّ بن عامر: « إن الأعاجمَ لهم آراءٌ وآدابٌ، ومتى نأتهم جميعاً يروا أنا احتفلنا بهم، فلا تردهم »، فمألفوه جميعاً على ذلك، فقال: « فسرَّحوني »، فأمر سعدٌ أن يُسرَّحَ.

وخرج ربعيُّ ليدخل على "رُسُتُم" عسكره، فاحتبسه الذين على القنطرة، وأخبر

(١) تاريخ الطبري : ٤٠٠/٢ ، ٤٠١ .

(٢) الحزمة : جمع حازم .

"رُسْتُمْ" بحميته، فاستشار عظماء أهل فارس، فقال: ما ترون؟ أُنْباهي أم تنهاون؟ فأجمع ملؤهم على التَّهاون. فأظهروا الزُّبرج<sup>(١)</sup>، وبسطوا البُسْطَ والنَّمارق<sup>(٢)</sup> ووَضِعَ لرستم سريرَ الذهب، وألبس زيتته من الأتماط والوسائد المنسوجة من الذهب.

وأقبل رِبعيٌّ يسيرٌ على فرَسٍ له قصير، ومعه سيفٌ له مشوف<sup>(٣)</sup>، وغِمْدُهُ لِفَافَةٌ ثوبٍ خَلِقٍ، ورُمُحُهُ مغلوبٌ بقدِّ، معه حِجْفَةٌ<sup>(٤)</sup> من جلود البقر، على وجهها أدمٌ أحمر مثل الرغيف، ومعه قوسه ونَبْلُهُ.

فلما وصل رِبعي إلى أدنى البسط، قيل له: انزل! فلما استوت فرسه على البساط نزل عنها، وربطها بوسادتين فشققهما، ثم أدخل الخيلَ فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه، وإنما أروه التهاون، وعرف ما أرادوا، فأراد استخراجهم.

فقالوا: ضع سلاحك.. فقال: «إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتوني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعتُ»

فأخبروا "رُسْتُمْ"، فقال: ائذنوا له، هل هو إلا رجلٌ واحدا!

فأقبل يتوكأ على رُمُحِهِ وَزُجْجِهِ<sup>(٥)</sup> نَصْلٌ يُقَارِبُ الخَطْو، وَيَزُجُ النَّمارقَ والبُسْطَ ! فما ترك لهم تُمْرِقَةً ولا بساطاً إلا أفسده، وتركه منتهكاً ممزقاً.

فلما دنا من "رُسْتُمْ" تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركَّز رمحه بالبُسْطَ.

فقالوا: ما حملك على هذا؟

(١) الزبرج: الرتبة من وشي أو جوهر.

(٢) النمارق: جمع غمرقة، وهي الوسادة الصغيرة.

(٣) مشوف: أي مجلوع.

(٤) الحجفة: علبه الرمح.

(٥) الزُّجج: الحديدية في أسفل الرمح.

قال: «إنا لا نستحبُّ القعود على زينتكم»

فكلمه "رستم" فقال: ما جاء بكم؟

قال ربي: «الله ابتعثنا، والله جاء بنا لئُخرجَ مَنْ شاءَ من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتِهَا، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فَمَنْ قَبْلَ ذَلِكَ مَنَا قَبِلْنَا ذَلِكَ مِنْهُ، وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَتَرَكَاهُ وَأَرْضَهُ يَلِيهَا دُونَنا، وَمَنْ أَبِي قَاتِلناه أَبداً، حَتَّى نَفْضِي إلى مَوْعودِ اللهِ»

قال رُستم: وما موعود الله؟

قال: «الجنة لمن مات على قتال من أبي، والظفر لمن بقي»

فقال رُستم: قد سمعت مقاتلكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر؛ حتى ننظر فيه

وتنظروا؟

قال: «نعم. كم أحبُّ إليكم؟ أيوماً أم يومين؟»

قال: لا، بل حتى نُكاتبَ أهلَ رأينا ورؤساءَ قومنا.

فقال: «إن مما سنُّ لنا رسولُ اللهِ ﷺ، وعمل به أئمتنا، ألا نمكِّن الأعداءَ من آذاننا، ولا نُؤجلهم - عند اللقاء - أكثرَ من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك وأمرهم، واختَرْ واحدةً من ثلاث بعد الأجل: اختر الإسلام، وندعك وأرضك، أو الجزاء، فنكف عنك، وإن كنتَ عن نصرنا غنياً تركناك منه، وإن كنتَ إليه محتاجاً منعناك، أو المنازعة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك - فيما بيننا وبين اليوم الرابع - إلا أن تبدأنا. أنا كفيل لك بذلك على أصحابي، وعلى جميع من ترى»

قال: أسيدهم أنت؟

قال: «لا، ولكن المسلمين كالجسد، بعضهم من بعض، يُجير أذنهم على

أعلاهم»

فخلف رُسُتم إلى رؤساء فارس، فقال: ما ترون؟ هل رأيتم كلاماً - قط -  
أوضح من كلام هذا الرجل؟

قالوا: معاذَ الله، أتدينُ إلى شيء من هذا، وتدع دينك لهذا الكلب؟ أما ترى  
إلى ثيابه؟!

فقال: ويحكم! لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيره،  
إنَّ العربَ تستخفُّ باللباس والمأكل، ويصنون الأحساب.. ليسوا مثلكم في اللباس،  
ولا يرون فيه ما ترون.<sup>(١)</sup>

ورجع ربعي إلى أن ينظروا إلى الأجل.

فلما كان من الغد بعثوا إلى سعد: أن ابعث إلينا ذلك الرجل. فبعث إليهم  
"خديفة بن محصن"، فأقبل في نحو من ذلك الزَّيِّ الذي كان به ربعي، حتى إذا كان  
على أدنى البساط قيل له: انزل، قال: «لو جئتم في حاجتي، فقولوا للملكم: ألهُ  
الحاجة أم لي؟ فإن قال: لي، فقد كذب، ورجعت وتركتكم»

فقال "رُسُتم": دعوه، فجاء حتى وقف عليه وهو على سريره، فقال: انزل.  
قال: «لا أفعل»، فلما أبى سألته، ما بالك جئت ولم يجيء صاحبنا بالأمس؟

قال: «إن أميرنا يحبُّ أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء، وهذه توتيتي»

قال: ما جاء بكم؟

قال: «إن الله منَّ علينا بدينه، وأرانا آياته حتى عرفناه وكُنَّا له منكرين، ثم  
أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث، فأتيها أجابوا إليها قبلناها: الإسلام  
ونصرف عنكم، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك، أو المنابذة»

(١) تاريخ الطبري: ٤٠١/٢، ٤٠٢.

فقال: أو المواعدة إلى يومٍ ما.

فقال: « نعم. ثلاثاً من أمس »

فلما لم يجد عنده إلا ذلك ردّه، وأقبل يُحدّث مَنْ معه.

فلما كان الغدُ أرسل إلى العرب: ابعثوا إلينا رجلاً، فبعثوا إليه "المغيرة بن شعبة"، فلماً جاء إلى القنطرة عَبَّرَهَا إلى أهل فارس، واستأذِنُوا رُسُتْمَ في إجازته، ولم يُعَيِّرُوا شيئاً من شارحهم - تقويةً لتهاونهم - وأقبل المغيرةُ عليهم والقوم في زيَّهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبُسُطُهم على غَلْوَة (١) لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها.

فأقبل المغيرة، وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس على سريره ووسادته، فوثبوا عليه، فَتَرَّتْ رُؤُوسُهُمْ (٢) وَأَنْزَلُوهُ، وَمَعَّوْهُ (٣).

فقال: « كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوما أسفّه منكم.. إنا معشر العرب سواء، لا يستعبدُ بعضنا بعضاً، إلاّ أن يكون مُحَارِباً لصاحبه، فظننتُ أنّكم تُؤاسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أربابُ بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتوني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وإن مُلكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول »

فقال السّفلة: صدق والله العربي، وقالت الدّهاقين (٤): والله لقد رمى بكلام لا

(١) الغلوة: مقدار مرماة.

(٢) أي: زحزحوه.

(٣) أي: ضربا ليس بالشديد.

(٤) الدّهاقين: زعيم فلاحي العجم .

يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أولينا، ما كان أحققهم حينما كانوا يُصعقرون أمر هذه الأمة !

فمازحه "رُسْتُمْ" ليمحو ما صُنِعَ به، وقال: يا عربي، إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك فيتراخى عنها؛ مخافة أن يكسرهما عما ينبغي من ذلك، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق.

ما هذه المغازل (١) التي معك ؟ قال: ما ضَرَّ الجمرَةَ ألا تكون طويلة، ثم راماهم، فقالوا: ما بال سيفك رتاً ؟

قال: (( رَثُ الكسوة، حديد المضربة )) ثم عاطاه سيفه، ثم قال رُسْتُمْ: تتكلم أم أتكلم؟ فقال المغيرة: (( أنت الذي بعثت إلينا، فتكلم ))، فأقام الترجمان بينهما، وتكلم رُسْتُمْ فحمد قومه، وعظَّم أمرهم، وقال: لم نزل متحكِّمين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرفاً في الأمم، فليس لأحدٍ من الملوك مثل عِزِّنا وشرَفِنا وسُلطاننا، نُتصِرُّ على الناس ولا يُنصَرُونَ علينا إلاَّ اليوم واليومين، أو الشهر والشهرين للذنوب، فإذا انتقم الله فرضي ردَّ إلينا عِزِّنا وجمعنا لعدونا شرَّ يوم هو آتٍ عليهم.. ثم إنه لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا أمراً منكم، كتتم أهل معيشة سيئة، لا تراكم شيئاً ولا نعدكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم، وأصابكم السنَّة (٢) استغثتم بناحية أرضنا، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير، ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلاَّ ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا أمر لأميركم بكسوة، وبغلٍ، وألف درهم، وأمر لكل رجل منكم بوقر (٣) تمرٍ، وبثوبين، وتصرفون عنا، فإنني لست أشتهي أن أقتلكم ولا أسرکم.

(١) يريد السهام.

(٢) السنة : الجذب.

(٣) الوقر: الحمل.

فتكلم المغيرة بن شعبه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله خالق كل شيء ورازقَه، فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذي له، وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك - من الظهور على الأعداء، والتمكن في البلاد، وعظم السلطان في الدنيا - فنحن نعرفه، ولسنا نُنكره، فالله صنعه بكم ووضعه فيكم، وهو له دونكم.. وأما الذي ذكرت فينا - من سوء الحال، وضيق المعيشة، واختلاف القلوب - فنحن نعرفه، ولسنا نُنكره، والله ابتلانا بذلك وصيرنا إليه، والدنيا دُول، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم، ويصيروا إليها.. ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شُكرٍ، كان شكركم يقصُر عما أدبتم، وأسلمكم ضعفُ الشكر إلى تغيير الحال».

ثم تحدّث عن حالة قومه - بعد أن أرسل الله فيهم نبيّه ﷺ - حتى انتهى إلى قوله: «وإن احتجت إلينا أن نمنعك فكن لنا عبداً، تؤدي الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإلا فالسيف»

فاستشاط رستم غضباً، ثم حلف بالشمس: لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين.

وانصرف المغيرة، وخلص "رستم" بأهل فارس، وقال: أين هؤلاء منكم؟ ما بعد هذا؟ ألم يأتكم الأولون فحسراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا، وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً، هؤلاء - والله - الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين<sup>(١)</sup>، والله لئن كان بلغ من صوتهم لسرهم ألا يختلفوا، فما قومٌ أبلغ فيما أرادوا منهم.

ولم يكد المغيرة يقطع القنطرة، ويصل إلى أصحابه، حتى جاء خلفه رجلٌ من

(١) وهل هم رجال إلا بالصدق!؟

أهل فارس يقول له: إن رستم مُتَّحِمٌ، وإنه حَسِبَ لك، ونظرَ في أمرِك، فقال: إنك غداً تُفَقِّأ عَيْنِكَ.

فقال المغيرة: « بثَّرتني بخير وأجر، ولولا أن أجاهدَ بعد اليوم أشباهكم من المشركين، لتمنيت أن الأخرى ذهبت أيضاً »<sup>(١)</sup>

وأراد سعد أن يرمي بآخر ما عنده من الرأي، فأرسل إلى "رُستَم" نَجبةً أُخرى من ذوي الرأي، فخرجوا حتى أتوه، وقالوا له: « إن أميرنا يقول لك: إني أدعوك إلى ما هو خيرٌ لنا ولك، العافية أن تقبل ما دعاك الله إليه، ونرجع إلى أرضنا، وترجع إلى أرضك، وبعضنا من بعض، ألا إن داركم لكم، وأمركم فيكم، وما أصبتم من ورائكم كان زيادةً لكم دوننا، وكنا لكم عوناً على أحدٍ إن أرادكم أو قويَ عليكم، اتق الله يا "رُستَم"، ولا يكونن هلاكُ قومك على يدك! »

وتكلم "رُستَم" فوصف حالهم، وقلل من شأنهم كما فعل مع إخوانهم من قبل، وأشاد بقومه ورفع شأنهم.

فتكلم القوم، وقالوا: « أما ما ذكرتَ من سوء حالنا فيما مضى، وانتشار أمرنا، فلم تبلغ كُنْهه، وبينما نحن في أسوء حال إذ بعث الله فينا رسولاً من أنفسنا إلى الإنس والجن، رحمةً رحمَ بها من أراد رحمته، ونقمةً ينتقمُ بها ممن ردَّ كرامته.. فبدأنا قبيلة قبيلة، فلم يكن أحد أشدَّ عليه، ولا أشدَّ إنكاراً لما جاء به، ولا أجهد على قتله وردّ الذي جاء به من قومه، ثم الدين يلونهم، حتى طابقتنا على ذلك كلُّنا، فنصبنا له جميعاً، وهو وحده فرد ليس معه إلا الله تعالى، فأعطي الظفر علينا، فدخل بعضنا في الدين طوعاً، وبعضنا كرهاً، ثم عرفنا - جميعاً - الحقَّ والصدق لما أتانا به من الآيات المعجزة.. وكان ممَّا أتانا

(١) تاريخ الطبري: ٤٠٢/٢ - ٤٠٤.

من عند ربنا جهاد الأدين فالأدين، فسرنا بذلك فيما بيننا، نرى أن الذي قال لنا ووعدنا به لا ينقضي، حتى اجتمعت العربُ على هذا، وكانوا من اختلاف الرأي فيما لا يطيق الخلائق تأليفهم، ثم أتيناكم بأمر ربنا، نجاهد في سبيله، وننفذ لأمره، ونستحضر موعودَه، وندعوكم إلى الإسلام وحُكمه، فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا، وخَلَفنا فيكم كتابَ الله، وإن أبيئتم لم يحل لنا إلا أن نُعاطيكم القتال أو أن تفتدوا بالجزية، فإن فعلتم وإلا فإن الله أورثنا أرضكم وأموالكم وأبناءكم، فأقبلوا نصيحتنا، فوالله، لإسلامكم أحبُّ إلينا من غنائمكم، ولقتالكم - بعد - أحبُّ إلينا من صلحكم، وأما ما ذكرت من رثائنا وقتلتنا، فإن أداتنا الطاعة، وقتالنا الصبر»<sup>(١)</sup>

ومضى الحديث بين الوفد وبين "رُسْم"، ولم تصلح المفاوضات، وحمياً الفريقان للحرب بعد أن بُلغت الدَعْوَةُ على أكمل ما يكون البلاغ. ودارت رحا الحرب، وكانت قاسية ضارية، لا نخوضُ في تفصيلها، ولكننا نقف منها عند أحوال هؤلاء الرجال الذين ثبتوا عندما ثبتت في قلوبهم دعوةُ الله، فكانوا بها ولم يكونوا بغيرها.

ولعلَّ كتابَ سعدٍ إلى عمرَ يَصوِّر لنا حالهم في إيجاز، ويُعطينا نتائج المعارك الضارية.

كتب سعد إلى عمرَ فقال - بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه - أما بعد: «إِنَّ اللهَ نَصَرَنَا على أهلِ فارس، وَمَنَحَهُمْ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ من أهلِ دينِهِم بعد قتال شديد، وقد لَقُوا المسلمين بعدَّةٍ لم ير الرءاءون مثلَ زُهائِها، فلم ينفعهم اللهُ بذلك، وأتبعهم المسلمون على الأكمار وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين فلانٌ وفلانٌ، ورجالٌ من المسلمين لا نعلمهم، اللهُ بهم عالم، وكانوا يُدَوِّون بالقرآن إذا جنَّ الليل دوىَّ النحل، وهم آسادُ الناس، لا يشبههم الأسود، ولم يَفْضُلْ مَنْ مضى منهم مَنْ

(١) تاريخ الطبري : ٤٠٦/٢، ٤٠٧.

بقي إلا بفضل الشهادة؛ إذ لم تُكتب لهم»<sup>(١)</sup>

وكان عمر رضي الله عنه - عند نزول "رُسْم" القادسية - يستخبر الرُكبان عن جيش القادسية من حين يُصبح إلى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى أهله ومنزله، فلما لقي البشير<sup>(٢)</sup> سأله: من أين أقبلت؟ فأخبره. قال عمر: يا عبد الله حدثني. قال: هزم الله العدو. وعمرُ يُحِبُّ معه ويستخبره، والرجلُ يسير على ناقته ولا يعرفه، حتى دخل المدينة فإذا الناس يُسلمون عليه بإمرة المؤمنين، فقال الرجل: فهلاً أخبرتني - رحمك الله - أنك أمير المؤمنين! وجعل عمرُ يقول: لا عليك يا أخي.

فقام عمرُ في الناس فقرأ عليهم الفتح، وقال: «إني حريصٌ على ألا أدع حاجةً إلاَّ سددها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك عتأنا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف، ولوددتُ أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها، ولستُ مُعلمكم إلاَّ بالعمل، إني - والله - ما أنا بملكٍ فاستعبدكم، وإنما أنا عبدُ الله، عرض عليَّ الأمانة»<sup>(٣)</sup>

\* \* \*

على ضوء ما قدّمنا - وهو قليلٌ من كثير - يُعرَفُ الثبات في واقع تجرّبي، وتُرى أسبابه ونتائجه.. إن ثبات هذه النفوس يستند إلى أسس راسخة قام عليها بنيانها، وعزٌّ كيائها، بحملها فيما يلي:

#### أ- تجردهم لله الواحد الأحد:

حيث يتوجهون بعملهم إليه دون سواه، يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم، وهم يدركون أنهم بغير هذا التجرد يُخذلون ولا يُنصرون، وهذا قول عمر رضي الله عنه: «إن

(١) المرجع السابق: ص ٤٣٤.

(٢) كان هذا البشير سعد بن عميلة الفزاري رسول سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين.

(٣) تاريخ الطبري: ٤٣٥/٢.

المعونة تأتي من الله على قدر النيّة، والأجر على قدر الحسنة، وأسألوا الله العافية، وأكثرُوا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله»، ثم يقول: «وخَفَ اللهُ وارْجِه، ولا تدل بشيء، واعلم أن الله قد وعدكم، وتوكل لهذا الأمر بما لا خُلفَ له، فاحذر أن تصرفه عنك، ويستبدل بكم غيركم»<sup>(١)</sup>

### ب- معرفتهم الصادقة أن نصرَ الله لا يُطلبُ إلا بطاعة:

علموا ذلك، كما علموا أن ذنوبَ الجيش أخوف عليهم من عدوِّهم، فجاء عملهم مُطابقاً لمعرفتهم، فهم صادقون في استقامتهم، صادقون في نُصحهم، يرون أن الإنسان يُهزَم من نفسه ومن عمله قبل أن يُهزَم من عدوِّه، ولعلك تذكر ما قاله أحدهم لرُستم: «إن أعمالكم قد وضعتكم، فأسلمكم الله بها، فلا يُغرِّك ما ترى حولك»

### ج- اعتزازهم بما آمنوا به:

كما اعتزوا بإيمانهم اعتزازاً مَلَكَ عليهم نفوسهم، وتحوَّل إلى سلوك فطري عُرفوا به، ولم يُعرفوا بسواه، كما تُعرفُ الشجرة الطيبة بثمرها، ولا تكاد ترى لهذه النفوس ثمراً يتناقى مع فطرة إيمانها، أو سلوكاً يتناقض مع اعتزازها بدينها، فإذا رُئيَ غيرُهم يُيدي زيتته من المتاع، ويتناول بزهره الحياة الدنيا، رأيتهم وقد صغر كلُّ ذلك في أعينهم، وعظمت العاقبة، والعاقبة للتقوى.

### د- تماسكهم جميعاً كالبنيان المرصوص أو كالجسد الواحد:

كما تماسكوا فيما بينهم، وتداعوا لما يُصيبهم بحيث لا يسمعُ واحدٌ منهم لنفسه أن تُؤتى أمته من قبله - وهو يعلم أنها لا تُؤتى إلا بمعاصيه - ولا يتركُ أحدهم أخاه دون نُصحٍ وتوجيه، فهم جميعاً متعاونون فيما بينهم على البرِّ والتقوى.

(١) المرجع السابق: ص ٣٨٧.

وكان لهذا الاتساق الفريد قيمته في وَحْدَةِ الكلمة، مما لَفَتَ نَظَرَ عدوِّهم وهو يفاوضهم واحداً بعد الآخر، فلا يرى اتجاهها لواحد منهم يَدُّ عن الآخر، حتى قال رُسُتُم - بعد أن فارقه المغيرة، وقد رآه بعد أن رأى غيره - قال: « ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا، وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً. هؤلاء والله الرجال، والله لمن كان بلغ من صَوْنِهِمْ لسِرِّهِمْ ألاَّ يختلفوا، فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم ».

### هـ- وهم جميعاً يتزودون من زادٍ واحدٍ:

ومن قبل ذلك ومن بعده يستمدون معرفتهم من مصدر واحد، هو كتابُ الله ﷻ، ويتمسكون بسنة واحدة هي سنة نبيهم ﷺ، ولعلك تذكرُ خطابَ التوجيه أو التكليف لسعد بن عبد الله وعمر بن الخطاب يقول له: « فانظر الأمر الذي رأيتَ النبي ﷺ - منذ بُعثَ إلى أن فارقتنا - فالزمه؛ فإنه الأمر »؟، وتذكرُ - أيضاً - كتابَ سعد لعمر وهو يُبلغه بالفتح، فيقول فيما قال: « وأصيب فلانٌ وفلانٌ، ورجالٌ من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، وكانوا يُدوون بالقرآن - إذا جنَّ عليهم الليلُ - دوى التَّحْلِ، لا يأكلون إلا طيباً، ولا يضعون إلا طيباً »؟

وإن شئتَ إجمالاً فقل: كانوا حيثُ أحبَّ اللهُ ورسولُهُ.

وبين أيديهم كتابُ الذكر الحكيم، يُقبلون عليه ولا يُعرضون عنه، يُحلون حلاله، ويُحرِّمون حرامه، يرضون برضاه، ويسخطون بسخطه، وهو محفوظٌ بحفظ الله؛ ليكون حُجَّةً للناس أو عليهم.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١)

وأمام أعينهم خطى نبيهم ﷺ يسرون عليها في كلِّ أمر، ويتبعونها في كلِّ شأن، وهم يحفظون من كتاب ربهم ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ

(١) الحجر: ٩.

وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ  
ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ (١)

ويحفظون عن نبيهم « تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا:  
كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ » (٢)

على هذه الأسس كان ثابتهم. وبها انتفت كل ألوان الوهن والضعف من حياتهم؛  
لأن معالم الأشياء قد حُدِّدت أمام أعينهم، وقيمتها قد بيّنت، فوضعوا كل شيء في  
موضعه، دون مغالاة أو تجاوز، وأعطوا كل شيء ما يستحقه من اهتمام أو إعراض.

عَرَفُوا أَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ، فَلَمْ يَنْشُدُوهَا لِلكَثِيرِ..

وَعَرَفُوا أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى، فَأَحْرَزُوا التَّقْوَى، وَتَرَوْدُوا بِهَا..

عَرَفُوا أَنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ  
الْجَنَّةَ؛ فَقَدَّمُوا رَاضِينَ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ.

فلم يستطع العدو - وقد تحدت قيمة كل شيء أمام أعينهم - أن يُغريهم، أو يُوهن  
من قواهم، أو يُضعف من عزائمهم، ولعلك تذكر ما قاله المغيرة بن شعبة لهذا الذي جاء  
بخوفه مما رآه رُسم - وكان مُنحماً - من أن عينه تُفقأ غداً، فقال له المغيرة: « بشرتني بخير  
وأجر، ولولا أن أجاهد بعد اليوم أشباهكم من المشركين لَتَمَنَّيْتُ أَنْ الْأُخْرَى ذَهَبَتْ أَيْضاً »

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ  
وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣)

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) رواه مالك في الموطأ.

(٣) إبراهيم: ٢٧.

### ٣- اتصافه بالحكمة

ومن منطق الثبات لخصائص الدَّعْوَةِ في نفس الداعية تأتي الصفة الثالثة للداعية، وهي أن يكون مُتَّصِفًا بالحكمة، وقد أمر الله تعالى بها في الدَّعْوَةِ إلى سبيله، فقال:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾<sup>(١)</sup>

والحكمة هبة وعطاء يُنمِّيها الكَسْبُ، ويُقوِّمها العلم والعمل.

وإذا كانت البصيرة من أخصِّ خصائصها، فإن البصيرة لا تكون إلا بالتقوى.

وإذا فَمَعِنُ الحكمة « إخلاص، وفقه، وطاعة ».

والداعية إلى الله إن حُرِّمَ الحكمة فقد حُرِّمَ خيراً كثيراً، وكان إلى الإساءة أقرب

منه إلى الإحسان.

إنها نعمة يُؤتيها الله من يشاء من عباده ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا

كثيراً ﴾<sup>(٢)</sup>، ومن هذا الخير يستطيع أن يقدم كثيراً إلى الناس على هدى وبصيرة.

والحكمة تقتضي:

أن يكون الداعية عالماً بأحوال من يدعوهم؛ ليختار العلاج المناسب لهم، وكم من ناسٍ

أساءوا من حيث أرادوا الإحسان - لعدم معرفتهم - وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!

ومن الحكمة أن يكون الخطاب مُطابِقاً لمقتضى الحال، والناس تختلف أحوالهم

(١) النحل: من الآية ١٢٥.

(٢) البقرة: من الآية ٢٦٩.

فلا بُدَّ أن يتنوع الخطاب؛ حتى يلائم ما سبق له.

والحكمة زادها من تدبير كتاب الله، والوقوف عند أئمة الهدى من أنبياء الله ورُسُلِهِ، الذين واجهوا أقواماً تختلف أحوالهم، وتباين قضاياهم، فكان لهم مواقفهم التي تسمُّ بالحكمة في كلِّ ما عرَضَ لهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنِهِمْ آقْتَدِ﴾ (١)

ومن رحمة الله تعالى بالدعاة إليه أن جعل سيرة نبيه ﷺ مثلاً حياً؛ ليأخذ الدعاة منها هدايتهم، وقد تعددت المواقف وتنوَّعت، والرسول ﷺ يواجه كلَّ موقف بما يلائمه، وهذه السيرة الحية يجب أن تُدرس في أناةٍ وفقهٍ وتدبيرٍ؛ لتكون أمام الدعاة حركة حياة، لا حفظ كلماتٍ.

ومن أيّن ضروب الحكمة أن يتلطفَ الدعاة في التصح، وأن يعلموا أنهم دُعَاة إلى الله، فلا يُنْسُوا العاصين، أو يقنطوهم من رحمة الله.. إنهم يملكون دعوتهم، ولا يملكون هدايتهم، وهذا هو توجيه الله تعالى لنبين كريمين: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٢)

ولست أرى أجمعَ لصفات الخير في نفس الداعية من الإخلاص لله، وحُسن التوجه إليه، فيه تنتفي جميع العِلل التي تُعوق خُطى الدعوة وتهبط بهم، ويتوفّر الحرص على الناس، وحبُّ الخير لهم، ومنه تكون الحكمة في الوصول بهم إلى موطن الرحمة، في صبرٍ واحتساب.

ولن يكون للداعية نورُه بغير مددٍ من ربِّه سبحانه، ولن تصل كلمائمه إلى

(١) الأنعام: من الآية ٩٠.

(٢) طه : ٤٤.

القلوب بغير إخلاص وتجرد ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾<sup>(١)</sup>

وكم من ناسٍ تسمع منهم كلماتٍ مُنَمَّقة، بل تسمعهم يقرءون القرآن - وما أعظم شأنه - فتتهم حالك أو حالهم؟! ومن الناس ناسٌ قد تُعجزهم الكلمات، ولكن ملامح الصدق فيهم تُعبّر وتؤثر، وقد تَصُنّت الثكلى، ولكنها تحرك القلب، وتثير الدمع! إن حالها يعبرٌ حيث سَكَتَ لسائها، وتعبير الحال أبلغ من تعبیر المقال « ومُعلِّم نفسه ومؤدبها أحقُّ بالاحترام من مُعلِّم الناس ومؤدبهم »

ومراعاة الحالة النفسية للمخاطب أمرٌ أساس في دعوته؛ فالنفس تنفر من التشهير، وربما دفعها إلى الإصرار والمكابرة والعناد، وكان الداعية - بمسلكه هذا - منفرًا لا داعيًا.

وقد كان الرسول ﷺ يعرفُ أفعالَ ناسٍ بأعينهم، ولكنه كان يتجنبُ ذِكرَهُم، ويقول: « مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذًّا وَكَذًّا؟ »<sup>(٢)</sup> وفي هذا إعطاء فرصة واسعة للمخطئ أن يُراجع نفسه، ولغيره أن يتعظ ويعتبر.

ومن الحكمة الاعتدال والموضوعية في أسلوب الدعاة.

وأعنى بـ (الاعتدال) ألا تدفع الغيرة على الدَّعوة أن تُعرضَ بغير فطرتها - وفطرتها الرحمة، وسبيلها الحكمة - وألا يقع الداعية في قبضة اليأس لما يرى من سوء حال الناس.. وعليه أن يعرف - أولاً وآخرًا، وكما قلتُ من قبل - أنه يملك دعوة الناس، ولا يملك هدايتهم، فليكنْ مُخلصاً واعياً، حكيماً في تبليغ دعوته، وألاً يفقد زاده من الإخلاص والتقوى؛ ففي الإخلاص النجاح والنجاح، وإن أحداً لا يستطيع أن

(١) النور: من الآية ٤٠.

(٢) رواد مسلم.

يُحَوِّلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِحْلَاصِ.

وإذا فلا معوق - قط - لعزَّ الإنسان ورفعته، وفوزه وفلاحه، إذا ما أدرك أن ذلك كله مرتبطٌ بأخلاق، وأدرك أن حاجته عند الله وليست عند أحدٍ من الناس؛ فأحسنَ التوجُّهَ إليه، وأنسَمَ بالصُّدُقِ في جميع شئونه.

وأعنى بـ (الموضوعية) أن يكون دارساً للقضية التي يُريد علاجها، مُدركاً عللها وأبعادها، مُستنداً في علاجها إلى فطرة الدَّعوةِ نفسها، وهي تَهْدِفُ إلى الرحمة، وتفتحُ بابَ الرجوعِ والتوبة.

والدَّعوةُ الإسلامية - في عصرها الحاضر - تمضى في اتجاهين، أو قُلْ: في اتجاه واحدٍ ذي شعبتين: اتجاه داخلي، واتجاه خارجي.

وأعنى بالاتجاه الداخلي: عملها في الديار التي اعتنقت الإسلام، وآمنت بها، وأريدَ لها أن تخلطَ بين عاداته وتقاليده، وبين محاكاةِ الغير باسم التطور والتقدم.

أما الاتجاه الخارجي فهو: عملها بين الذين لم يؤمنوا بها، وهذا الاتجاه نُحِثُ عليه رغبةً أصيلةً في القيام بحقِّ الدَّعوةِ ونشرها بين العالمين بدافعٍ من فطرة الدَّعوةِ نفسها وما تأمرُ به.

وهنا موضعُ المعاناة والمشقة؛ فإن الدَّعوةَ - منذ وُجِدَتْ - كانت القدوة، وهي العامل الأساس في نشرها وتعلُّقِ الناس بها، القدوة بالرسول ﷺ والأسوة به، والقدوة بأصحابه الذين رأهم الناسُ فرأوا فيهم سيرته ﷺ وهديه.

فإذا ما هبطتُ ديارُ الإسلام عن المستوى الذي ينشده الإسلام، كانت بسلوكتها داعيةً للبعْدِ عنه، وإن دَعَتُ بقولها إليه، وتحقق - بواقعها المتناقض - فتنة الناس وهم ينصرفون عن دين الله أحوج ما يكونون إليه.

وَيُمَثِّلُ الْمُسْلِمُونَ - بواقعهم المتناقض - عبئاً ثقيلاً على الإسلام نفسه؛ إذ لم يحملوه، بل حُمِلُوا عَلَيْهِ، ولم يُنصَفَوْه من أنفسهم، فاستحالَ على الناس أن يروه في غير واقعهم.

وليس كُلُّ النَّاسِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَدْرَسَ وَأَنْ يَتَدَبَّرَ، وَلَكِنْ جَمِيعَ النَّاسِ يَتَأَثَّرُونَ بِمَا يَقَعُ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ، وَيُقَلِّدُونَ النَّاجِحَ فِي شَيْئِهِ، وَالْأُمَّمُ كَالْأَفْرَادِ يُقَلِّدُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَيَأْخُذُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ.

ومن هنا كان للحديثِ عن الحكمةِ مجالاً أوسع، تُرَجِّعُهُ إِلَى النَّظَرِ فِي الْوَاقِعِ الْمَعَاصِرِ؛ لَنَرَى - عَلَى ضَوْءِ مَعْرِفَتِنَا لَهُ - مَا يُنَاسِبُ حَالَنَا، وَنَجْتَهِدُ - مُسْتَعِينِينَ بِاللَّهِ - فِي مَعْرِفَةِ الْوَسَائِلِ الصَّالِحَةِ لِمُوَاجَهَةِ هَذَا الْوَاقِعِ.. سِوَاءِ فِي دَاخِلِ الدِّيَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَوْ خَارِجِهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

\* \* \*

## ٤- حُسْنُ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ

ومن صفات الداعية حُسْنُ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. وهي صفة ترتبط بالإيمان، وتدلُّ عليه كما تدلُّ قُوَّةُ الْحَرَكَةِ عَلَى مَا وَرَائِهَا مِنْ مَكُونِ الدَّفْعِ وَالْقُوَّةِ.

قال موسى عليه السلام لقومه وهو يواجههم عدواً مُتَكَبِّراً لا يؤمن بيوم الحساب:

﴿ يَنْقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿١﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ وَخِزْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٣﴾ ﴿١﴾، ولم يكن قد آمن من قومه إلا القليل ﴿ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ ﴿١﴾، ولكنه واجه بهذا القليل خصماً عنيداً، فانتهى بهم التوكل على الله إلى النجاة.

وموسى عليه السلام - يُذَكِّرُ قَوْمَهُ - فِي جَمِيعِ فتراتِ ضَعْفِهِمْ وَخَوْفِهِمْ - بِحُسْنِ

التوكل على الله، والاعتماد عليه ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ﴿٤﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٥﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦﴾ وَأَزَلْفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴿٧﴾ وَأَخْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴿١٠﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢﴾ ﴿١٧﴾

ومن قبل موسى نرى نوحاً عليه السلام يعتصم بالتوكل على الله.

(١) يونس : ٨٤ - ٨٦.

(٢) يونس : من الآية ٨٣.

(٣) الشعراء : ٦١ - ٦٨.

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كَبِيرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِفَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (١)

وقد دعا قومه، فكذبوه وأعرضوا عنه ﴿ قَالُوا لَيْنَ لِمَ تَنْتَهِي يَنْتُوْحُ لَتَكُوْنَنَّ

مِنَ الْمَرْجُوْمِيْنَ ﴾ (٢)

دعاهم فلم يستجب منهم إلا القليل، وقد اعتصم هو ومن معه بالتوكل على الله، فكانت العاقبة، وكانت العبرة والعظة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ فَأَفْتَحَ بَيْتِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْتِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ (٣)

ونرى هوداً عليه السلام يعتصم بالتوكل على الله، وقد أذى رسالته ربه، وبلغ ما أمر به.

﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَا بَعْضُ الْهَيْتَانَا بِسُوءٍ ﴾ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ فَكَيْدُنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَنَسْتَخْلِفُ

(١) يونس: ٧١.

(٢) الشعراء: ١١٦.

(٣) الشعراء: ١١٧ - ١٢٢.

رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمُ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ ﴿١﴾

اعتصم هو والذين آمنوا معه بالتوكل على الله، فكانت العاقبة وكانت العظة والعبرة.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِبَايَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّءَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ ﴿٢﴾

واعتصم شعيب عليه السلام بالتوكل على الله وهو يُذكرُ قومه بمصارع المكذِّبين من قبل.

﴿ قَالَ يَنْقَوْمِرِ آرَاءَ يَتَّبِعُونَ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَنكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٦١﴾ وَيَنْقَوْمِرِ لَا تَجْرَمَنَّكُمْ شِقَاقِ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٦٢﴾ وَأَسْتَغْفِرُورَأْسُكُمْ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ ۗ إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ ﴿٣﴾

فما لقي من المكذِّبين إلا التهديد والوعيد، فأعلن توكله على الله، واعتماده عليه

هو والذين آمنوا معه.

(١) هود : ٥٤ - ٥٧ .

(٢) هود : ٥٨ - ٦٠ .

(٣) هود : ٨٨ - ٩٠ .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عِدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَلْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَحْمِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

اعتصموا بالله وتوكلوا عليه، فكانت العاقبة وكانت العظة والعبرة.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾<sup>(٢)</sup>

ونرى يعقوب عليه السلام وقد أبدى النصح لأولاده - بعد أن فجع في ابنه يوسف

على أيدي إخوته - نراه يعتصم بالتوكل على الله.

﴿ وَقَالَ يَبْنَىٰ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾<sup>(٣)</sup>

وترى ومضات الثقة وحسن التوكل على الله في كلماته، وهو يستحث أبناءه

على الفرار من اليأس والقعود، ويأمرهم بالتحرك المنبئ عن توكلهم على الله ﴿ يَبْنَىٰ ﴾

(١) الأعراف : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) هود : ٩٤ ، ٩٥ .

(٣) يوسف : ٦٧ .

أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ  
مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾<sup>(١)</sup>  
إنه توكل، لا توأكل.

وأكد أرى - في منطق النبي الكريم - حركة النفس، وحركة الحسّ معاً، حركة  
النفس باليقين، وحركة الحسّ بالاستجابة لهذا اليقين ﴿أَذْهَبُوا﴾، ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾،  
﴿وَلَا تَأْيِسُوا﴾.

فالتوكل حركة لا قعود، حركة لا هداً ولا تعرف اليأس ولا القنوط.. حركة  
موصولة بالثقة في العليم القادر ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ  
وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾<sup>(٢)</sup>

فكانت العاقبة وكانت العظة والعبرة ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ  
أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَأَمِينٌ﴾<sup>(٣)</sup>

ونرى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يعلن توكله على الله ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا  
وَإِلَيْكَ أُنَبَّأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾<sup>(٤)</sup> رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا  
رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٤)</sup>

يعلن - دائماً - توكله على الله، وفي لحظات الضيق والشدة، حين ألقى في النار

(١) يوسف : ٨٧ .

(٢) فاطر : من الآية ٤٤ .

(٣) يوسف : ٩٩ .

(٤) الممتحنة : من الآية ٤ ، الآية ٥ .

يقول: «حسبي الله ونعم الوكيل».

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾» (١)

وفي رواية أخرى للبخاري، عن ابن عباس قال: «كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» (٢)

فكانت العاقبة وكانت العظة والعبرة ﴿قُلْنَا يَتَّارُ كُونِ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧﴾ (٣)

\* \* \*

ومع خاتم الرُّسُل - صلوات الله وسلامه عليه - ترى التوكل على الله بارزاً في شئونه كلها، وترى آيات الوحي التي أنزلت عليه تأتي بالتعليل لما تأمر به، أو تنهى عنه.. فحين تأمر بالتوكل على الله تذكر من صفاته ما يُجيب عن سؤال مُفترض: لماذا أتوكل على الله؟ وحين تنهى عن التوكل على غير الله تأتي بعلة النهي، بل تذكر النتائج هنا وهناك.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۗ قُلْ

(١) آل عمران : ١٧٣.

(٢) رواه البخاري.

(٣) الأنبياء : ٦٩ ، ٧٠.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِمْ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ۗ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١﴾

والنتائج على أولئك الذين يتوجهون إلى غير الله، ويتخذون من دونه أولياء نتائج مهلكة خاسرة.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٢﴾ ﴾<sup>(٢)</sup>

وانظر عندما تدعو الآيات إلى التوكل على الله، كيف تذكر من صفات الله ما يؤنس النفس، ويطمئن القلب، ويحقق الثقة واليقين.

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ۗ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٤﴾ ﴾<sup>(٤)</sup>

أي إناسٍ للنفس أعظم من أن يُذكر الرحمن، وأن يُتوكل عليه !

(١) الزمر : ٣٨ .

(٢) العنكبوت : ٤١ .

(٣) الحج : من الآية ٣١ .

(٤) الرعد : ٣٠ .

إِنَّهُ نَعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنَعَمَ النَّصِيرُ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٦٠﴾ (١)

أي راحةٍ للنفس وهي تركزُ إلى مَنْ بيده ملكوتُ السماوات والأرض، وهو رب العرش العظيم!

بل أي استقامةٍ لها وهي تُدركُ أن مَنْ تدعوهم من دون الله ما يملكون من قطمير!!

إِنَّمَا اسْتِقامَةُ مَنْ لَا يَتَوَزَّعُ أَوْ تَتَفَرَّقُ بِهِ السَّبِيلُ ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾ (٢)

بل أي ثقةٍ تتحققُ للنفس وهي تُوقِنُ أن العباد لو اجتمعوا على ضرٍّ لم يحققوه، ولن ينفذوا إلا ما كتبه الله تعالى.

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٢﴾ (٣)

إن الناس يخشون الغدَّ المجهول، ويحسبون له بما يروونه من أسباب، وكثيراً ما ترى الناس يُخطئون، فيركنون إلى مالٍ أو جاهٍ أو متاعٍ، مع أنها أعراضٌ زائلة!

فأي طمأنينةٍ راسخةٍ في النفوس عندما يركنُ الإنسانُ إلى مَنْ له غيبُ السماوات

(١) التوبة : ١٦٩.

(٢) آل عمران : ١٦٠.

(٣) التوبة : ٥١.

والأرض، وإليه يرجع الأمر كله.

﴿ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١)

إن الآيات حين تدعو إلى التوكل تذكر من الصفات ما يُحييك عن سبب التوجه إلى الله دون سواه.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ (٢)

إن التوكل على غير الله اعتماد هائل على مفقود، والله - وحده - هو الحي الذي لا يموت.. ولذا نرى الرسول ﷺ يُفوض الأمر كله إليه، ويتوكل في جميع شئونه عليه.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسَلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ - لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ - أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ» (٣)

وعن أم المؤمنين أم سلمة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ « كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَزِلَّ أَوْ أُضِلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ » (٤)

(١) هود : ١٢٣ .

(٢) الفرقان : ٥٨ .

(٣) رواد مسلم .

(٤) رواد أبو داود والترمذي .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدَيْتَ، وَكُفَيْتَ، وَوُقِيَتْ، فَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ. فَيَقُولُ لَهُ الشَّيْطَانُ آخِرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟! » <sup>(١)</sup>

وهذا من نتائج التوكل على الله « هُدَيْتَ، وَكُفَيْتَ، وَوُقِيَتْ ».

﴿ وَمَنْ يُتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ <sup>٢</sup> إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ <sup>٣</sup> قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا <sup>(٢)</sup> ﴾

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ <sup>(١٨)</sup> إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ <sup>(١٩)</sup> ﴾ <sup>(٣)</sup>

ومن نتائج التوكل ما يجده المؤمن من حسنة الدنيا، ونعيم الآخرة.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ <sup>٤</sup> وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ <sup>٥</sup> لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ <sup>(١١)</sup> الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ <sup>(١٢)</sup> ﴾ <sup>(٤)</sup>

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا <sup>٦</sup> نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمَلِينَ <sup>(١٣)</sup> الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(٢) الطلاق : من الآية ٣.

(٣) النحل : ٩٨ ، ٩٩.

(٤) النحل : ٤١ ، ٤٢.

يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾

﴿ فَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۗ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (١)

ومن نتائج الحب الإلهي الذي تطيبُ به نفوسُ الكرام، وتسعى إليه ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مُخِيبُ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٢)

\* \* \*

إن الرُّسُلَ جميعاً - ومن تبعهم من المؤمنين - لا يفرطون - قط - في عُدةِ التوكل، وهم لا يرون أنفسهم غيرها، ولا يُبلغون دعوتهم بدُونِها، وما كان لهم أن يُجابهوا قُوى الشرِّ والباطل بغيرِ التوكلِ على الله، وما كان لهم أن يصدَّعوا بما أمروا به إلاَّ بحسن الاعتمادِ عليه ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۗ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٤)

وتلك وحدها التي يطيرُ لها لُبُّ المنافقين، وتلك وحدها موضعُ العزةِ في نفوسِ المؤمنين ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَتُؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ

(١) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) الشورى : ٣٦ .

(٣) آل عمران : من الآية ١٥٩ .

(٤) إبراهيم : من الآية ١١ ، الآية ١٢ .

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾

وبها وحدها يُجابهُ العصاةُ المتكبرين ﴿ فَإِنَّ عَصَوَكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ الَّذِي يَرْنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤﴾ وَتَقْبُلُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٥﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾

توكل على الله؛ لأنك على الحق، وجليدٌ بمن كان على الحق أن يتوكل على الله.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ ﴿٧﴾

﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى

بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ ﴿٨﴾

والتوكل صفةٌ تُحقق استقامة النفس مع مقتضيات الحق، دون ميلٍ أو تردُّد؛ فإن عواصِفَ الفتنةِ حول الدعوةِ كفيلاً أن تُرحزهم، وأن تميلَ بهم؛ فراراً من فتنة البلاء، أو استجابةً لبريق الإغراء.. ولن يعصمهم إلا حُسْنُ التوكل على الله، والاعتماد عليه، ولن يتحول بينهم وبين الاستجابة لبريق المنافع إلا عِظَمُ الخالق عندهم، ولذا كان النداء الذي يُطلبون به إلى بيوت الله في اليوم خمس مرات « الله أكبر »، وكان ترديد الكلمة - ما بين قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ - تربيةً للنفس؛ حتى لا تزلَّ أو تضلَّ، فإن عِظَمَ الخالق عندك يُصغِّرُ المخلوقَ في عينك.. وعندها تبطل المغريات، وتُهون الشدائد والمشقات.

(١) الأنفال : ٤٩ .

(٢) الشعراء : ٢١٦ - ٢٢٠ .

(٣) النمل : ٧٩ .

(٤) الأحزاب : ٤٨ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ، قَالَ حَدَّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا - قَالَ يَوْمًا - وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَدُّهُ -: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمُهُ وَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أُمُورًا؛ لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهَا أَيَّهَا شَاءَ، وَيَكْفَى عَنَّا؟. وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْرَةَ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْتُرُونَ.

فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَمَإِذَا لَعَلَّكَ..

فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ مَنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السُّطَّةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرِ عَظِيمٍ، فَرَفَّتْ بِهِ جَمَاعَتُهُمْ، وَسَفِهَتْ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعَبَتْ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَرَتْ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا؛ لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ »

قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ كُنْتُ إِثْمًا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْتَنَا لَكَ مِنْ أُمُورِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا. وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَدْنَاكَ عَلَيْنَا حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ. وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَكَانَا عَلَيْنَا. وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَيْئًا <sup>(١)</sup> تَرَاهُ - لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ - طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ، وَبَدَلْنَا فِيهِ غَلَبَ التَّابِعِ <sup>(٢)</sup> عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوِيَ مِنْهُ.

حَتَّى إِذَا فَرَّغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ: « أَقَدْ فَرَعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ »

(١) الرئي : ما يترأى للإنسان من الجن.

(٢) التابع : من يتبع من الجن.

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: « فَاسْمَعْ مِنِّي »

قَالَ: أَفْعَلُ.

فَقَالَ ﷺ: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حَمْرٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بِشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا يَقْرُؤُهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عْتَبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ. ثُمَّ قَالَ: « قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَلْتِ وَذَاكَ »

فَقَامَ عْتَبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَخْلَفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ.

فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَأَيْكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟

قَالَ: وَرَأَيْتِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالشَّعْرِ وَلَا بِالشَّحْرِ وَلَا بِالكَهَانَةِ. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُونَهَا بِي، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَرَلُوهُ؛ فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ تَبًّا عَظِيمًا، فَإِنْ نُصِبَ الْعَرَبُ فَقَدْ كَفَيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَى الْعَرَبِ فَمَلِكُهُ مَلِكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُتْمُكُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ. قَالُوا: سَحَرَكَ - وَاللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ - بِلِسَانِهِ. قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ فَاصْنَعُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ. (٢)

\* \* \*

(١) فصلت : ١-٤.

(٢) سيرة ابن هشام : ١٣١/٢.

عرض عتبة ما عرض، ولكن الرسول ﷺ ليس مع شيء مما عرض، إنه هنا مع القرآن، أليس فيما تُلي عليه من آيات ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۗ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ؟ (١)

إنه يستمسك بما أوحى إليه، ولا يتطلع إلى شيء من زُحرف الحياة وزينتها.

إنه لا يُساومُ على دعوته، ولا يقبل - وهو يعتمد على الله - أن يُزحزح عنها، وهذه قولته: « وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ، مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ » (٢)

إنه يدعوهم إلى ما هو عليه، لا أن يُدعى إلى ما يحرسون عليه ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣)

إن جميع المغريات - هنا - قد تلاشت، وبَدَت تَفَاهَتْهَا، وظهر اليقين، ومضى التوكل على الله مهيباً ألبياً يصدع بالحق، ويجهر بالصدق.

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٤) وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

(١) فصلت : ٣٣ - ٣٥.

(٢) سيرة ابن هشام : ١٠١/٢.

(٣) فصلت : ٦.

بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴿١﴾

توكل على الله تمتد به الدعوة فتواجه قوى الشر في ثبات، وتصريح قوى البغي في عدل، وترفع ميزان الحق في تجرد، وتصون كرامة الإنسان بإقرار الحقوق والواجبات.

\* \* \*

وجدير بالدعاة أن يقفوا عند هذه الآيات التي تلاها الرسول ﷺ من سورة فصلت (٢)؛ ليدركوا حكمة اختيارها في هذا الموقف، وهم واحدون فيها - بتوفيق الله - دروساً في مجال دعوتهم، ومنها:

#### أ- الاستمسك بأصول الدعوة:

فكثيراً ما يحاول المخالفون أو المنكرون أن يميلوا بالدعاة إلى حوار جانبي بصرفهم به عن الحقيقة الكاملة، ويشغلهم بصغائر الأمور، أو يستخفّوهم بما يُثيرون حولهم؛ ليشغلهم بأنفسهم، ويصرفهم عن دعوتهم.

ونجد الرسول ﷺ - هنا - لا يلتفت لما عرضه عبثاً من أمور، بل يعرض عنها إعراضاً يحدّد قيمتها، وأنها لا تستحق أن يُوقف عندها، ولو في كلماتٍ عابرة.

ونراه ﷺ يتوجّه إلى أصول دعوته، ونرى عبثاً يعود بغير الوجه الذي جاء به..  
ألم يسمع عبثاً فيما سمع من آيات ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿٣٨﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَكًا فَإِنَّا أَرْسَلْنَا بِهِ كَافِرُونَ

(١) الأحزاب : ١ - ٣.

(٢) من أول السورة إلى الآية ٣٨.

﴿٦﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَاقِبَتِنَا يَسْتَحْدُونَ ﴿٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسُوتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ لَهُمْ وَلَا يَنْصُرُونَ ﴿٨﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ آهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩﴾ ﴿١﴾

فأي قيمة للأمر التي عرضها بعدما سمع عن مصائر من كذبوا، وقد كانوا أشد منهم قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؟!

لقد عاد عتبه - فعلاً - بغير الوجه الذي جاء به؛ لأنه جاء بأمر ظنها ذات تأثير وقيمة، فعاد وقد رأى قيمتها عند رسول الله ﷺ، فهي لم تستحق عنده أن يذكرها، ولو بكلمة واحدة.

عاد وهو يُوقن أنه أمام أمر ذي شأن خطير، حدث عنه فقال: « قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا، وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالشَّعْرِ وَلَا بِالسَّحْرِ وَلَا بِالكِهَانَةِ. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُونَهَا بِي، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَرِلُوهُ؛ فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ »

والدرس هنا للدعاة: أن يقضوا ثابتين عند أصول دعوتهم، وألا يُستدرجوا بعيداً عنها.

## ب- علاج الموقف بما يلائمه:

وأكمل علاج إنما يكون بفترة القرآن وجوامع الكلم، ولذا رأينا الرسول ﷺ

يُجيبه بآياتٍ من كتاب الله وَعَلَّمَ.

واختيار الرسول ﷺ لهذه الآيات فيه درسٌ للدعاة، درسٌ معرفةً وحكمةً في اختيار الموضوع، وأن يُساقَ أسمى لفظٍ لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله.

ولئن كان هذا هو أسلوبُ القرآن، فإنَّ من الواجب على الدعاة - وقد أحسنوا اختيار موضوعهم - أن تسمو كلماتهم، وأن تكون - دائماً - أعلى في دلالتها وأسلوبها، وأن يقتبسوها من القرآن، وأن يكون لهم من رسولهم ﷺ - في كلِّ شأنٍ - أسوة، وهو مَنْ هُوَ ﷺ في فصاحة لسانه وبلاغة منطقته، فقد كان ﷺ من ذلك « بالمحلِّ الأفضل، والموضع الذي لا يُجهَل. سلاسة <sup>(١)</sup> طبع، وبراعةٌ منزع <sup>(٢)</sup> وإيجازٌ مقطوع <sup>(٣)</sup>، ونصاعة <sup>(٤)</sup> لفظ، وجزالةٌ قول، وصحةٌ معان، وقلةٌ تكلف، أوتى جوامع الكلم <sup>(٥)</sup>، وخصَّ ببدائع الحكم، وعُلم السنَّة العرب، فكان يخاطبُ كلَّ أمةٍ بلسانها، ويحاورها بلُغتها، ويباريها <sup>(٦)</sup> في منزع بلاغتها <sup>(٧)</sup>»

أما عن الموضوع فلنقف وقفةً متدبِّرةً خاشعةً عند الآيات التي تلاها الرسول ﷺ، فإنها تُحدِّد مصدرَ التنزيل، والغاية منه. إنه من الرحمن الرحيم، والرسول ﷺ يُوحى إليه، وهو مأمور بالتبليغ، ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم تُؤدِّنُ بالغاية منه، وهي الرحمة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ <sup>(٨)</sup>

(١) سلاسة : أي سهولة.

(٢) البراعة : مصدر برع الرجل أي فاق أقرانه في العلم وغيره.

(٣) مقطوع : أي تمام كلام.

(٤) نصاعة : النصاعة الخلوص.

(٥) جوامع الكلم : هو جمع جامعة.

(٦) يُباريها : يُقال : فلان يُباري فلاناً، أي يعارضه.

(٧) الشفاء للقاضي عياض.

(٨) الأنبياء : ١٠٧.

وهذه الرحمة يتحدّد موضوعها في عقيدة وعمل.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا  
إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾<sup>(١)</sup>، أو قل في إيمان واستقامة، وهو ما  
عبّرت عنه هذه الآية، والآية التي تلاها الرسول ﷺ من بعد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا  
اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي  
كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>

وهو ما ذكره الرسول ﷺ عندما طلب منه السائل أن يحدّثه بأمرٍ عظيمٍ يعتصم  
به، ففي صحيح مسلم عن أبي عمرو - وقيل أبي عمرة - سفيان بن عبد الله رضي الله عنه  
قال: « قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ:  
قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقَمْتُ »<sup>(٣)</sup>

وهي وصية جامعة لحِصَالِ الدِّينِ كُلِّهَا.

وبعد ذِكْرِ الموضوع والغاية، تأتي النتائج.. وهي في جانبٍ من آمِنَ واستقام: نجاة،  
وَأَمْنٌ، وفوزٌ، ورضوانٌ، وفي جانبٍ من كَذَبَ وَعَصَى: خزيٌّ، وهوانٌ، ودمارٌ، وخسرانٌ.  
ويعرض الجزء في ثلاث صور متتابعة، يُلاحَظ في عرضها البدء بنتائج الكُفْرِ؛  
لأن المقصود هو إخراج الناس من ظلمات الكُفْرِ إلى نُورِ الإيمان.. فليكن الحديث عنه  
أولاً، فإذا ما أُحيط بالفس - وقد رأت عاقبة الإصرار عليه - التَّمَسَّتْ سُبُلَ النجاة،  
وهيأت لمعرفة أسبابه، فجاء الحديث عن الإيمان.

(١) فصلت : ٦ .

(٢) فصلت : ٣٠ .

(٣) رواد الترمذي .

الصورة الأولى: تأتي جملة.

١- ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

٢- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦٨﴾ ﴾<sup>(٢)</sup>

ثم تأتي الصورة الثانية مُفصَّلة على الترتيب من بيان الجزاء في الدنيا، ثم في الآخرة، وقبل أن تذكر النتائج تقرر أن الكُفْرَ في حقيقته نُكرانٌ لفضل الله، وأنه نشازٌ يتنافى مع الخضوع والتسبيح من كل شيء، وهو هباءٌ لا يستند من البرهان على شيء.

﴿ قُلْ أَنتُمْ كَافِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُدًى أُنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَيَبْرُكُ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٧١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴿٧٢﴾ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٧٣﴾ ﴾<sup>(٣)</sup>

ثم يأتي عَرْضُ الصورة الثانية المُفصَّلة للجزاء، ويبدأ - كما قلتُ - بنتائج الكُفْر؛ لتنفّر النفسُ منه، وتلتصق بالمرح.

(١) فصلت : من الآية ٦٦، الآية ٧٠.

(٢) فصلت : ٨.

(٣) فصلت : ٩ - ١٢.

الصورة الثانية:

١- ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾  
 إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ  
 شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ  
 فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ  
 اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا  
 عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَحْزَىٰ لَهُمْ وَلَا يَنْصُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ  
 فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخَذْتَهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ آهُونَ بِمَا كَانُوا  
 يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴿١٧﴾

٢- ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴿١٨﴾

ثم تأتي الصورة التالية بتفصيل من نوع آخر، تُرى فيه المعادة للكفر من كل شيء، حتى من الأعضاء التي عاونت، والجوارح التي أخضعت، وترى الموالاتة للإيمان، والتُّصرة والأمن والبشرى من الله وملائكته.

الصورة الثالثة:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا  
 جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

(١) فصلت : ١٣ - ١٧.

(٢) فصلت : ١٨.



ثم تنتهي إلى بيان مكانة الدعوة إلى الله، وما يجب أن يكونوا عليه من أخلاق العفو والصبر، وما أعدَّ اللهُ لهم من عظيمِ الثُوبة والأجر ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۗ أَدْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿١﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ (١)

وعلى الدعوة أن يستعيدوا بربهم إذا ما وسوس لهم الشيطان لينزل بهم عما يجب أن يكونوا عليه من أخلاق العفو، ودفع السيئة بالحسنة، ومن الصبر على المكاره، والأصبر يصيخروا إليه إن هو أراد أن يُعدهم عن هذه المكانة العالية - مكانة الدعوة إلى الله - فإن ما يُحيط بهم من فتنه يفتح للشيطان أبواباً إلى النفس يُسَوِّل لها ويُزِين ﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢)

ثم تأتي آية السجدة التي ختم الرسول ﷺ تلاوته بها، وفيها ما فيها من دعوة إلى تكريم الإنسان بعبادة ربه، بإخراج العباد من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، فالشمس والقمر والليل والنهار آياتٌ مسخرة للناس، نعمة من الله ورحمة، ففيها منفعة ودلالة..  
إنما مسخرة بأمره تعالى لمتعتكم ومنفعتكم، وهي تدلُّ على الله، وتدعو إليه، فهل يليق أن يأخذ الإنسان منها ما يأخذه الحيوان، ويُعرض عن الدلالة التي يُخاطب بها ويتميز؟!!

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۗ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا

(١) فصلت : ٣٣ - ٣٥.

(٢) فصلت : ٣٦.

يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنُ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانُ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالَّذِينَ نَعَمَ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ (١)

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ ﴾ (٢)

نعم.. تأتي آية السجدة بعد هذا البيان لتدعو الناس إلى عبادة الخالق؛ تكريماً للإنسان أن يزل أمام شجر أو حجر أو بشر، أو يسجد لشمس أو قمر؛ فإنها مخلوقات والله هو الخالق.

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣)

﴿ وَمِنَ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَّا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٨٠﴾ فَإِن آسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَّا يَسْمَعُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ (٤)

\* \* \*

يصدع الرسول ﷺ بما أمر به - متوكلاً على الله - أمام طغاة لم يتركوا باباً من أبواب الفتنة إلا سلكوه.. من إغراء - كما رأيت - ومن بطش، وتعذيب، ومقاطعة ومحاصرة، واستهزاء وسخرية، وتحريض وصد، وإخراج من الديار والأموال..

والرسول ﷺ يقابل كل ذلك بالثبات على كلمة الحق دون ميل، أو ركون لغير الله.

(١) الأعراف : ١٧٩ .

(٢) محمد : من الآية ١٢ .

(٣) النحل : ١٧ .

(٤) فصلت : ٢٧ ، ٢٨ .

ولم تُفلح جميع الوسائل في فئنة المؤمنين الصادقين وهم يرون الرسول ﷺ يزداد ثقةً كلما ازداد الخطرُ واشتدَّ، ويزدادُ بشراً كلما أَمعنَ الكفارُ في الغدر والكيد. وهو في جميع الأحوال يذكُرُ ربَّه، ويركن إليه.

ألم تره ﷺ وعُصبة الشر تُحيطُ بالغار، وأبو بكر ﷺ يرى وقوفهم عنده، فيخشى أن يُصيب الرسول ﷺ منهم أذى، فيقول الرسول ﷺ في ثقةٍ ويقين: « ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما؟! لا تحزن؛ إن الله معنا »<sup>(١)</sup>

إنَّه توكلُ الواثق، لا تواكلُ القاعد الذي ينتظر أن يأخذ بيده أحدٌ من البشر. توكلُ من لا يفرطُ في سببٍ، ولا ينصرفُ عن شرفِ الغاية، ولا يُشركُ بعبادة ربِّه أحدًا.

لقد جمع الكفرُ جموعه، وحوصرت مدينةُ رسول الله ﷺ، واستطاعت جموعُ الأحزاب أن تُغرِي بني قريظة بالغدر، وهو ما ذكر الله في كتابه ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿٥٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٥١﴾ ﴾<sup>(٢)</sup>

وما كان ظنُّ المؤمنين إلا يقيناً وثباتاً ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٥٢﴾ ﴾<sup>(٣)</sup>

أما المنافقون فقد أبتُ ألسنتهم إلا أن تخضع لقلوبهم، وأن تُعبرَ عما فيها ﴿ أَمْشِحَةً

(١) متفق عليه.

(٢) الأحزاب : ١٠ ، ١١.

(٣) الأحزاب : ٢٢.

عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۗ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ۗ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١﴾

ومن بداية الأمر رأيتهم يلتمسون مخرجاً إلى الفرار والهرب.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا الْأَذْبَرَ ۗ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَّن يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۗ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

في هذا الموقف المشحون بالغدر، الذي تجمّع فيه الكُفْرُ بجميع طوائفه وأحزابِه، وسائدهُ النفاقُ بجنّته وخُذْلانِه، وآوى إليه اليهودُ متآخين معه في شرٍّ وغدر.

في هذا الموقف الذي تُرى المدينة فيه في حصارٍ رهيب، يرسل الرسول ﷺ إلى بني قريظة - وقد علم بأمرهم، وأنهم بيّتوا غدرًا بعد عهد - يرسلُ إليهم؛ ليستوثق من

(١) الأحزاب : من الآية ١٩.

(٢) الأحزاب : ١٢ - ١٧.

أمرهم، ويأمر مَنْ أرسلهم أن يأتوا إليه باليقين من أمرهم، قائلاً لهم: « ائْتَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا أَحَقَّ مَا بَلَّغْنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا ؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحِنُوا لِي لِحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفْتُوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ »

فَوَجَدُوهُمْ عَلَىٰ أَحَبِّثِ مَا بَلَّغْتُمْ عَنْهُمْ فِيمَا نَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: مَنْ رَسُولُ اللَّهِ. لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ.

وكان في الوفد الذين أرسله الرسول ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ، وَشَاتَمُوهُ - وَكَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدَّةٌ - فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ: دَعْ عَنكَ مُشَاتَمَتَهُمْ، فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَىٰ مِنَ الْمُشَاتَمَةِ. ثُمَّ أَقْبَلَ سَعْدٌ وَسَعْدٌ وَمَنْ مَعَهُمَا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا: عَضَلُ وَالْقَارَةُ <sup>(١)</sup> فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « اللَّهُ أَكْبَرُ، أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ » <sup>(٢)</sup>.

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ <sup>٤</sup> إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ <sup>٥</sup> قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا <sup>(٣)</sup> ﴾

ها هي الرياح تُؤَدِّنُ فَتُجِيبُ، وتُؤَمِّرُ فَتَنْطَلِقُ، وما هم جنود الله - وما يعلم جنود ربك إلا هو - يُرْسَلُونَ؛ ليضعوا مع الرياح حدًّا لهذا البغي المتسلط.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَرَأَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَصَحْبَتَهُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي. قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا

(١) أي كعدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، حبيب وأصحابه.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٤/١٧٨.

(٣) الطلاق: من الآية ٣.

نَجْهَدُ. قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْنَا مَا تَرَكَنَاهُ يَمْسِي عَلَى الْأَرْضِ، وَلَحَمَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا. قَالَ: فَقَالَ حُدَيْفَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ، وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ - يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجْعَةَ - أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رِيفِي فِي الْجَنَّةِ؟» «فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ؛ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبُرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الصِّيَامِ حِينَ دَعَانِي؛ فَقَالَ: «يَا حُدَيْفَةُ، اذْهَبْ فَاذْخُلْ فِي الْقَوْمِ، فَاَنْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ، وَلَا تُحَدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا»»، قَالَ: فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ، وَالرَّيْحُ وَجُنُودُ اللَّهِ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ، لَا تُقِرُّ لَهُمْ قَدْرًا وَلَا نَارًا وَلَا بِنَاءً. فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرْ أَمْرًا مِنْ جَلِيسِهِ. قَالَ حُدَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ إِلَيَّ جَنِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانَ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصَبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ، لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ<sup>(١)</sup> وَالْخُفُّ، وَأَخْلَفْتَنَا بَنُو قُرَيْظَةَ<sup>(٢)</sup>، وَبَلَّغْنَا عَنْهُمْ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ شِدَّةِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يُسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ. ثُمَّ قَامَ إِلَيَّ جَمَلُهُ وَهُوَ مَعْقُولٌ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ بِهِ عَلَى ثَلَاثِ، فَوَاللَّهِ مَا أَطْلَقَ عَقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْ لَا عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيَّ «أَنْ لَا تُحَدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي» لَقَتَلْتَهُ بِسَهْمٍ.

قَالَ حُدَيْفَةُ: فَارْجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ<sup>(٣)</sup> لِبَعْضِ نِسَائِهِ مَرَّاجِلٍ<sup>(٤)</sup>، فَلَمَّا رَأَيْتِي أَدْخَلْتَنِي إِلَى رِجْلَيْهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ

(١) الكراع: الخيل.

(٢) تخلفهم رجوعاً إلى الوفاء، وإنما أخلفتهم لما وقع بينهم من فرقة وخلاف، وما فعله نعيم بن مسعود من حيلة.

(٣) أي: كساء.

(٤) المراجيل: ضرب من وصى اليمن.

وَسَجَدَ وَإِنِّي لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتَهُ الْخَبَرَ، وَسَمِعْتُ غَطْفَانُ بِمَا فَعَلْتُ قُرَيْشٍ،  
فَأُشْمَرُوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ عَنِ الْخَنْدَقِ رَاجِعًا إِلَى  
الْمَدِينَةِ، وَالْمُسْلِمُونَ وَوَضَعُوا السَّلَاحَ، فَلَمَّا كَانَتْ الظُّهْرُ أَتَى جَبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
مُعْتَجِرًا <sup>(١)</sup> بَعَامَةَ مِنْ إِسْتَبْرَقَ، عَلَى بَعْلَةَ عَلَيْهَا رِحَالَةٌ، عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ، فَقَالَ:  
أَوْقَدْ وَضَعْتَ السَّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ جَبْرِيلُ: فَمَا وَضَعْتَ الْمَلَانِكَةَ  
السَّلَاحَ بَعْدُ، وَمَا رَجَعْتَ الْآنَ إِلَّا مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ، إِنَّ اللَّهَ وَكَعَلِي يَا مُحَمَّدُ  
بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنِّي عَامِدٌ إِلَيْهِمْ، فَمُرُّوا بِهِمْ.

فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُؤَدِّئًا فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ: مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا فَلَا يُصَلِّينَ  
الْعَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ. <sup>(٢)</sup>

وانتهى أمر بني قريظة إلى ما ينتهي إليه أمر كل خائن غادر، وأعز الله جنده،  
ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ  
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
مِنْ صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا  
﴿ وَأَوْزَنَكُمْ أَرْضَهُمْ وِدْيَرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿ ﴿ <sup>(٣)</sup>

\* \* \*

(١) الاحتجار بالعمامة : أن يلفها على رأسه، ويرد طرفها على وجهه، ولا يعمل شيئا منها تحت ذقنه.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ١٩١/٤.

(٣) الأحزاب : ٢٥ - ٢٧.

أرأيتَ كيف يكون التوكل على الله، وكيف تكون نتيجته.. فمهما عَظُمَ  
الخطبُ في أعين الناس أيعظُمُ على الله؟!

إننا نرى الرسول ﷺ وقد أُخبر بما وقع من بني قريظة - في وقت يُحاطُ بالمدينة  
من كلِّ جانب - نراه يقول: «الله أكبر، أبشروا»

ألا ترى ما في هذه الكلمة من دلالة في هذا الموقف، إنها دلالة ردِّ الخطر بما هو أعظمُ،  
ردُّه بالاستعانة بالله الذي لا يُعجزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء، فكان ما قد رأيت.

ومع الأسى البالغ يبدو أن المسلمين - في واقعهم المعاصر - قد تجاوزوا الحدَّ في  
بعدهم عن دينهم، حتى رأينا "ليفى أشكول" بعد لعنة ١٩٦٧م يقف بعد النصر الذي  
صُنِعَ له؛ ليقول (( الآن قد انتقمنا لبني قريظة ))، وقوله هذا أغنى عن التعليق، فهو  
يُبرهن بقوله عن دوافع المجيء إلى قلب الأمة العربية، واختيارهم أرض فلسطين، وهي  
دوافع تعود إلى الحقد على الإسلام وأهله.

ومع الأسى البالغ فقد مكَّنت أمة الإسلام من نفسها بفرقتها وبعدها عن دينها،  
وحاول كثيرون أن يرفعوا شعارات يدعون أمتهم إليها، فكانت التَّكْبَةُ على أيديهم،  
وكان الذُّلُّ والهوان، ونطق "أشكول" بكلمته وهو مطمئن أن هذه الأمة قد جهلت  
تاريخها، فلا بأس أن يكذب، وأن يَشيد ببني قريظة، وأن يُعلن أنه جاء لينتقم لها.

وا عجباً أن يَشرفَ إنسانٌ بنسبته إلى الغدرا! وأن يُراد لأمتنا - في حاضرها -  
أن تبرا من نَسبِ الوفاء والطَّهر.

فلنرجع الحديث حتى نأتي إلى الواقع المعاصر، ولنعتصم بالعنصر الخامس، أو  
الصفة الخامسة التي يجب أن يتَّصف بها الداعية وهي: الصبر.

\*\*\*

## ٥- صبره وقوة تحمله

« الصبر » تلك الكلمة المظلومة التي أخذت - في واقعنا المعاصر - دلالةً غير دلالتهَا، ولا غرابة أن تفقدَ الكلماتُ - عند الانحطاط - معانيها، وأن تبعدَ - في عُرفِ الناس - عن دلالتهَا.

الصبر كلمةٌ كبيرةٌ، وصفةٌ عظيمةٌ.

كلمةٌ وثَّابةٌ، تحفظ الإنسانَ من الخضوعِ للهوى، وتجمع طاقته؛ ليتجه إلى غايته دون انشغال بترهات الباطل وسفاهته.

كلمةٌ أئبىةٌ، تحبس النفسَ على الوقوفِ عند ما تؤمنُ به دون تفريطٍ، وتحملها على قبولِ المشقةِ دون أن تهينَ أو تستكينَ.

ولكن الكلمة - في عصر الانحطاط - أخذت في الناس طابع الانكسار والذُّل، بل طابع السلبية التي تستمرئ الظلمَ وتُبرره؛ فراراً من موتٍ وحباً لحياة..

إن الصبر معنيٌّ لا تحتمله إلا نفوسُ الأعراء الشرفاء..

إنه خُلِقَ الأنبياء، جاء التواصي به بعد التواصي بالحق؛ ليكونا معاً جناحي

الصعود للمؤمنين، والفرار من خُسْر ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ (١)

والإنسان لا يستغني عنه في حالٍ من الأحوال؛ فإنه بين أمرٍ يجب امتثاله وتنفيذه، وهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقَدَرٍ يجري عليه اتفاقاً، ونعمةٍ يجب عليه

(١) سورة العنصر.

شُكْرُ المنعم عليها. وإذا كانت هذه الأحوال لا تُفارقه فالصبر لازمٌ له إلى الممات.

وكلُّ ما يلقي العبدُ في هذه الدَّار لا يخلو من نوعين: أحدهما يُوافق هُواه ومُرادَه، والآخِر يُخالفه. وهو محتاج إلى الصبر في كُلِّ منهما.

أما النوع المُوافق لِعَرضه، فكالصحة، والسلامة، والجاه، والمال، وأنواع الملاذ المُباحة، وهو أحوج شيءٍ إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدها: أن لا يركن إليها، ولا يَغترَّ بها، ولا تحمله على البَطَر والأشْر، والفرح المذموم الذي لا يحبُّ اللهُ أهله.

الثاني: أن لا ينهمك في تيلِّها، ويبالغ في استقصائها؛ فإنها تنقلبُ إلى أضداده فَمَنْ بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده، وحُرِّم الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبرَ على أداء حقِّ الله فيها، ولا يضيعه فيسلبها.

الرابع: أن يصبر عن صرْفها في الحرام، فلا يُمكن نفسه من كُلِّ ما تريده منها، فإنها تُوقعه في الحرام، فإن احترز - كُلُّ الاحتراز - أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون. قال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصِّديقون».

وأما النوع الثاني المخالف للهوى فلا يخلو إمَّا أن يرتبط باختيار العبد، كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط أوَّله باختياره كالمصائب، أو يرتبط أوَّله باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه. فهذا هنا ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره، وهو جميع أفعاله التي تُوصَف بكونها طاعة أو معصية، فأما الطاعة فالعبدُ محتاج إلى الصبر عليها؛ لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية.

أما في الصلاة فَلَمَّا في طَبْعها من الكسل وإيثار الراحة، ولاسيَّما إذا اتفق مع

ذلك قسوة القلب، ورَيْنُ الذنب، والميل إلى الشهوات، ومخالطة أهل الغفلة، فلا يكاد العبدُ - مع هذه الأمور وغيرها - أن يفعلها، وإن فعلها - مع ذلك - كان متكلفاً، غائب القلب، ذاهلاً عنها، طالباً لفراقها، كالجالس إلى الحيفة.

وأما الزكاة؛ فَلَمَّا في طبعها - أي النفس - من الشُّحِّ والبُخل، وكذلك الحج والجهاد؛ لِلأمرين جميعاً.

ويحتاج العبدُ - ها هنا - إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

أحدها: قبل الشروع فيها، بتصحيح النية، والإخلاص، وتجنب دواعي الرياء والسُّمعة، وعقد العزم على تَوْفِيَةِ المأمورية حقَّها.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل، فيلازم العبدُ الصبر على دواعي التقصير فيه والتفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية، وعلى حضور القلب بين يدي المعبود، وألَّا ينساه في أمره، فليس الشَّانُ في فعل المأمور، بل الشَّانُ - كُلُّ الشَّانِ - ألاَّ يَنْسَى الأمر حالَ الإتيان بأمره، بل يكون مستصحباً لِذِكْرِهِ في أمره، فهذه عبادة العبيد المخلصين لله.

فهو محتاج إلى الصبر على تَوْفِيَةِ العبادة حقَّها، بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسُنَنِها، وإلى الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها، ولا يُشغَل عنه بعبادته، فلا يُعطِّله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته، ولا يُعطِّله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل، وذلك وجوه:

أحدها: أن يُصَبِّرَ نفسه عن الإتيان بما يُبطل عمله، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ <sup>(١)</sup> فليس الشَّانُ الإتيان بالطاعة، إنما الشَّانُ في حِفْظِها مما يُبطلها.

(١) البقرة: من الآية ٢٦٤.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعُجْب بها، والتكبر والتعظيم بها، فإنَّ هذا أضرُّ عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السرِّ إلى ديوان العلانية؛ فإنَّ العبد يعمل العمل سرّاً بينه وبين الله سبحانه فيُكْتَب في ديوان السرِّ، فإنَّ تحدّث به نُقل إلى ديوان العلانية. فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يُعين على قطع المألوفات، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة، وقَطْع العوائد، فإنَّ العادة طبيعة خاصة، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جُنْدان من جُنْد الشيطان، فلا يقوى باعث الدُّين على قهرهما.

القسم الثاني: ما لا يدخل تحت الاختيار، وليس للعبد حيلة في دَفْعِهِ، كالمصائب التي لا صُنْع للعبد فيها، كموت من يَعر عليه، وسرقة ماله، ومرضه ونحو ذلك. وهذا نوعان، أحدهما: ما لا صُنْع للعبد الآدمي فيه، والثاني: ما أصابه من جهة آدمي مثله، كالسَّب والضرب وغيرهما.

فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات:

أحدهما: مقام العجز، وهو مقام الجَزَع والشكوى والسخط، وهذا ما لا يفعله إلاَّ أقلُّ الناس عقلاً وديناً ومروءة، وهو أعظم المصيبين.

المقام الثاني: مقام الصبر، إمّا لله، وإمّا للمروءة الإنسانية.

المقام الثالث: مقام الرضا، وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر مُتَّفَقٌ على وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر، وهو أعلى من مقام الرضا، فإنه يشهد البلية نعمة، فيشكر المبتلي عليها.

وأما النوع الثاني: وهو ما أصابه من قِبَلِ الناس، فَلَهُ فِيهِ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ، وَيُضَافُ إِلَيْهَا أَرْبَعَةٌ آخَرَ: (أحدها) مقام العفو والصفح، (والثاني) مقام سلامة القلب من إرادة التَّشْفِي وَالإِنْتِقَامِ، وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت، وضيِّقه بها، (والثالث) مقام شهود القَدَرِ، وأنه وإن كان ظالماً بإيصال هذا الأذى إليك، فالذي قَدَّرَهُ عَلَيْكَ وَأَجْرَاهُ عَلَى يَدِ هَذَا الظَّالِمِ لَيْسَ بِظَالِمٍ، (والمقام الرابع) مقام الإحسان إلى المسيء، ومقابلة إساءته بإحسانك. وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا الله، فَإِنْ فَاتَ الْعَبْدَ هَذَا الْمَقَامَ الْعَالِيَّ فَلَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ بِأَحْسَنُ الْمَقَامَاتِ وَأَسْفَلَهَا.

القسم الثالث: ما يكون وروؤه باختياره، فإذا تمكَّن لم يكن له اختيارٌ ولا حيلة في دَفْعِهِ، كالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حيلة في دَفْعِهَا بعد مباشرة أسبابها، كما لا حيلة في دَفْعِ السُّكْرِ بعد تناول المُسَكَّرِ، فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوَّلِهِ، فَلَمَّا فَاتَهُ بَقِيَ فَرَضُ الصَّبْرِ عَلَيْهِ فِي آخِرِهِ، وَأَنْ لَا يُطِيعَ دَاعِيَ هَوَاهُ وَنَفْسِهِ.

وللشيطان ها هُنَا دَسِيسَةٌ عَجِيبَةٌ، وَهِيَ أَنْ يُخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنْ نَيْلَ بَعْضِ مَا مُنِعَ قَدْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ، أَوْ يُبَاحَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّدَاوِي، وَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ كَالْتَّدَاوِي بِالْخَمْرِ وَالنَّجَاسَةِ. وَقَدْ أَجَازَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ، فَإِنَّ هَذَا التَّدَاوِي لَا يُزِيلُ الدَّاءَ، بَلْ يُزِيدُهُ وَيُقَوِّمُهُ، وَكَمْ مَن تَدَاوَى بِذَلِكَ فَكَانَ هَلَاكُهُ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ فِي هَذَا الدَّوَاءِ، بَلِ الدَّوَاءُ النَّافِعُ لِهَذَا الدَّاءِ الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(١)</sup>، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ

(١) آل عمران : من الآية ١٨٦.

اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾، فالصبر والتقوى دواء كلِّ داءٍ من أدواء الدِّين، ولا يستغني أحدهما عن صاحبه.

فإن قيل: فهل يُتاب على الصبر في هذا القسم إذا كان عاصياً مُفَرِّطاً يتعاطى أسبابه؟ وهل يكون مُعاقباً على ما تولَّد منه وهو غير اختياري له؟

قيل: نعم، إذا صَبَرَ اللهُ تعالى، ونَدِمَ على ما تعاطاه من السبب المحظور، أُتِيب على صبره؛ لأنه جهادٌ لنفسه، وهو عمل صالح، والله لا يضيع أجرَ مَنْ أحسن عملاً.

وأما عقوبته على ما تولَّد منه، فإنه يستحق العقوبة على السبب وما تولَّد منه، كما يُعاقبُ السُّكران على ما جَنَّاهُ في حال سُكْرِهِ، فإذا كان السبب محظوراً لم يكن السُّكران معذوراً.

فإن الله تعالى يُعاقبُ على الأسباب المُحرَّمة وعلى ما تولَّد منها، كما يُتِيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولَّد منها، ولذا كان مَنْ دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار مَنْ اتَّبَعَهُ؛ لأن اتِّباعهم له تولَّد عن فعله. ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كَفْلٌ من ذَنْبِ كُلِّ قَاتِلٍ إلى يوم القيامة، وقد قال الله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ﴿٢﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أُنْقَابَهُمْ وَأَتْقَالاً مَعَهُمْ أُنْقَابَهُمْ ۗ وَلِيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣﴾

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولَّد وليس من فعله، والإنسان يتوب عمَّا يتعلَّق

(١) يوسف : من الآية ٩٠ .

(٢) النحل : ٢٥ .

(٣) العنكبوت : ١٣ .

باختياره قبل التوبة منه بالندم عليه، وعدم إجابة دواعيه وموجباته، وحبس النفس عن ذلك؟!!

فإن كان المتولد متعلقاً بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان، ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يُبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب - الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من اليّنات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك - أن يُصلحوا العمل في نفوسهم، ويبينوا للناس ما كانوا يكتُمون إياه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٦٧﴾﴾ (١) (٢).

\* \* \*

أرأيت أن الصبر لا يُستغنى عنه في حال من الأحوال، فما بالك بالدعاة الذين ندبوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله؟ إنهم لا يستطيعون أن يقوموا بما أوجبه الله عليهم - وهم دعاة إليه - إلا بالصبر.

إنه عونٌ لهم، أي عون في المضي على الصراط المستقيم، ومن لا صبر له لا عون له.

وقد ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز ما يحسن بالداعية أن يقفَ عنده ويتدبره، وأن يرى ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه الكرام.

قال الإمام أحمد - رحمه الله -: « ذكر الله - سبحانه - الصبر في القرآن في

(١) البقرة: ١٥٩، ١٦٠.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: ص ٥٠-٥٥، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

تسعين موضعاً».

ونحن نذكر الأنواع التي سبق فيها الصبر، وهي عدة أنواع:

أحدها: الأمر به، كقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾<sup>(٢)</sup>

الثاني: النهي عما يُضاده، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾<sup>(٤)</sup>، وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾<sup>(٥)</sup>، وبالجملة فكل ما نهى عنه فإنه يُضاد الصبر.

الثالث: تعليق الفلاح به، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(٦)</sup> فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

الرابع: الإخبار عن مُضاعفة أجر الصابرين على غيره، كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾<sup>(٧)</sup> قال سليمان بن القاسم: «كُلُّ عَمَلٍ يُعْرَفُ ثَوَابُهُ إِلَّا الصَّبْرَ» قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْتَىٰ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>(٨)</sup>.

(١) النحل : من الآية ١٢٧ .

(٢) الطور : من الآية ٤٨ .

(٣) الأحقاف : من الآية ٣٥ .

(٤) آل عمران : من الآية ١٣٩ .

(٥) القلم : ٤٨ .

(٦) آل عمران : ٢٠٠ .

(٧) القصص : من الآية ٥٤ .

(٨) الزمر : من الآية ١٠ .

الخامس: تعليق الإمامة في الدين به وباليقين، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِقَائِلَتِنَا يُوْقِنُونَ ﴾ (١)،  
فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

السادس: ظفرهم بمعية الله لهم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢)،  
قال أبو علي الدقاق: « فاز الصابرون بعز الدارين؛ لأنهم نالوا من الله معيته »

السابع: أنه جَمَعَ للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم، وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿ وَكَشَّرَ الصَّابِرِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١١٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١١٧﴾ (٣)، وقال بعض السلف - وقد عَزَّى على مصيبة نالته -: « ما لي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال، كُلُّ خصلة منها خير من الدنيا وما عليها »

الثامن: أن الله جعل الصبر عَوْنًا وَعُدَّةً، قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (٤) فَمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ لَا عَوْنَ لَهُ.

التاسع: أنه سُبْحَانَهُ علق النصر بالصبر والتقوى، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

(١) السجدة : ٢٤ .

(٢) البقرة : من الآية ١٥٣ .

(٣) البقرة : ١٥٥ - ١٥٧ .

(٤) البقرة : من الآية ٤٥ .

مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴿<sup>(١)</sup>﴾، ولهذا قال النبي ﷺ: «واعلم أن التَّصْرَمَ مَعَ الصَّبْرِ» <sup>(٢)</sup>

العاشر: أنه سُبْحَانَهُ جعل الصبرَ والتقوى جُنَّةً <sup>(٣)</sup> عظيمةً من كيد العدو

ومكره، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُضْرِكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ <sup>(٤)</sup>

الحادي عشر: أنه سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أن ملائكتَه تُسَلِّمُ عليهم في الجنة بصبرهم، قال

تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٢٦﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ

فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ <sup>(٥)</sup>

الثاني عشر: أنه سُبْحَانَهُ أباح لهم أن يُعَاقِبُوا على ما عُوقِبُوا به، ثم أقسم قَسَمًا

مؤكدًا أن صبرهم خيرٌ لهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ

بِهِ ۗ وَإِنَّ صَبْرَتُمْ لَهِيَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ <sup>(٦)</sup>

الثالث عشر: أنه سُبْحَانَهُ رَبَّ المَغْفِرَةِ والأَجْرَ الكَبِيرَ على الصبر والعمل

الصالح، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ <sup>(٧)</sup>

الرابع عشر: أنه سُبْحَانَهُ جعل الصبرَ على المصائب من عَزْمِ الأمور، قال تعالى:

(١) آل عمران : ١٢٥ .

(٢) رواه أحمد .

(٣) أي وقاية .

(٤) آل عمران : من الآية ١٢٠ .

(٥) الرعد : من الآية ٢٣ ، الآية ٢٤ .

(٦) النحل : ١٢٦ .

(٧) هود : ١١ .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾<sup>(١)</sup>، وقال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾<sup>(٢)</sup>

الخامس عشر: أنه سبحانه وعَدَّ المؤمنين بالنصر والظفر - وهي كلمته التي سبقت لهم، وهي الكلمة الحسنى - وأخبر أنه إنما أناهم ذلك بالصبر، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾<sup>(٣)</sup>

السادس عشر: أنه سبحانه علَّقَ محبته بالصبر، وجعلها لأهله، فقال: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾<sup>(٤)</sup>

السابع عشر: أنه سبحانه أخبر عن خصال الخير أنه لا يُلقاها إلا الصابرون، وذلك في موضعين من كتابه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾<sup>(٥)</sup>، وقال: ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾<sup>(٦)</sup>

الثامن عشر: أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبارُ الشكور، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ

(١) الشورى : ٤٣ .

(٢) لقمان : من الآية ١٧ .

(٣) الأعراف : من الآية ١٣٧ .

(٤) آل عمران : ١٤٦ .

(٥) القصص : ٨٠ .

(٦) فصلت : ٣٥ .

النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٠﴾ ﴿١﴾،  
 وقال سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ  
 صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ﴿١١﴾، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ  
 لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ﴿١٢﴾، وقال جل شأنه:  
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿١٣﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ  
 عَالِيِ ظَهْرِمَاةٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ﴿١٤﴾، فهذه أربعة مواضع في  
 القرآن تدل على أن آيات الرب إنما يتفجع بها أهل الصبر والشكر.

التاسع عشر: أنه تعالى أثني على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره، فقال:  
 ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿٥﴾، فأطلق عليه « نعم العبد »  
 بكونه وجده صابراً، وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلي، فإنه يفسد العبد.

العشرون: أنه سبحانه حكّم بالحسران - حكماً عاماً - على كل من لم يؤمن، ولم  
 يكن من أهل الحق والصبر، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم، فقال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرُ ﴿١﴾  
 إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ  
 وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ ﴿٦﴾

(١) إبراهيم : ٥ .

(٢) سبأ : من الآية ١٩ .

(٣) لقمان : ٣١ .

(٤) الشورى : ٣٢ ، ٣٣ .

(٥) ص : من الآية ٤٤ .

(٦) سورة العصر .

ولهذا قال الشافعي - رحمه الله -: « لو فُكِرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَوَسِعَتْهُمْ »<sup>(١)</sup> وذلك أن كمال العبد في تكميل قوتي العلم والعمل - وهما الإيمان والعمل الصالح - وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

الحادي والعشرون: أنه سبحانه خصَّ أهل الميمنة بأهم أهل الصبر والرحمة، الذين قامت بهم هاتان الخصلتان، ووصوا بهما غيرهم، قال تعالى: ﴿ تُمْرَّكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۗ ﴾<sup>(٢)</sup>

الثاني والعشرون: أنه سبحانه قرَنَ الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان، فقرنه بالصلاة ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۗ ﴾<sup>(٣)</sup>، وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۗ ﴾<sup>(٤)</sup>، وجعله قرين التقوى ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۗ ﴾<sup>(٥)</sup>، وجعله قرين الشكر ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۗ ﴾<sup>(٦)</sup>، وجعله قرين الحق ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۗ ﴾<sup>(٧)</sup>، وجعله قرين الرحمة ﴿ تُمْرَّكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ۗ ﴾<sup>(٨)</sup>، وجعله قرين اليقين ﴿ وَجَعَلْنَا

(١) تفسير ابن كثير: ٧٠٨/٤.

(٢) البلد: ١٧، ١٨.

(٣) البقرة: من الآية ٤٥.

(٤) هود: ١١.

(٥) يوسف: من الآية ٩٠.

(٦) سبأ: من الآية ١٩.

(٧) العصر: من الآية ٣.

(٨) البلد: ١٧.

مِنْهُمْ أَهْمَةٌ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِقَائِمَتِنَا يَوْفُونَ ﴿٢٤﴾<sup>(١)</sup>، وجعله  
قرين الصدق ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾<sup>(٢)</sup>

ويكفي بعض ذلك شرفاً وفضلاً. والله أعلم.<sup>(٣)</sup>

\* \* \*

(١) السجدة : ٢٤ .

(٢) الأحزاب : من الآية ٣٥ .

(٣) عنده الصابرين : ١ / ٥٧ - ٦٠ .

## ٦- استغناؤه عما في يد الناس

ومن أبرز صفات الداعية استغناؤه عما في يد الناس، وابتغاؤه ما في يد الله.. فهو لا يرجو إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه.

إنه يسأل الله وحده، ويرجوه دون سواه، ويركن إليه في جميع شئونه، ويرضى عنه في جميع أحواله، ويشكره على نعمه، ويثق فيما عنده، وأنه - وحده - الغني والناس جميعاً فقراء إليه.

وكذلك كان الأنبياء - وهم صنفوا الدعوة إلى الله - متجردين، لا يبتغون إلا وجه الله، ولا يشدّون إلا رضاه، وبذلك استطاعوا أن يواجهوا أقوامهم دون ذلّة من حاجة.

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسَابِقِينَ ﴾<sup>(١)</sup>

وإذا أردت أن تُنصرَ على أمرٍ فاستغن عنه؛ فإن النفس راغبة، ولكنها تقنع إذا رُدّت، وحاجاتها الضرورية محدودة، وأيامها في الحياة معدودة، وأجلها مغيب، فقد يكون الحرص على الشيء حرصاً على لا شيء! فكّم من طعام هبّي لناس وطعمه غيرهم، وكم من دورٍ شُيّدت وسكّنها غيرُ بانيها، والخير - كلُّ الخير - في النظر إلى العواقب؛ فإن النظر إليها يُحدّد الرغائب، ويؤدّب التطلع، والنفس إن تُركت لهواها لم تقنع بشيء، وإن صُرفَ عنها الهوى عرفت حقيقة كلِّ شيء، فلم تُشغَل بفانٍ عن باقٍ، ولم تُفتن بزهرة الحياة.

(١) بونس : ٧٢.

والداعية إلى الله قُدوةٌ للناس من حوله، ولا تَبْطُ به بينهم ما يخالف دعوته من أمره، وهذا لا يتكَلَّفُ له؛ فإن الرياء يكشف ما وراءه «وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضحُ».

فالصدق - والصدق وحده - هو لغةُ القلوب، وهو وحده الذي يُخاطَبُ الناسُ به، فيرضى الله عنه.

وليس أسوأ في نظر الناس من إنسان يُكذِّبُ بعضه بعضاً، يُكذِّبُ إعلانُ ثقته في نفسه حديثه عن اعتزازه بخالفه، ويُكذِّبُ هواه إظهارَ حبه للحقِّ، ويكذِّبُ جُبُه إظهارَ البطولة والشجاعة.

والدُّعَاةُ إلى الله قد أعلنوا بدعوتهم رضاهم عن الله. وهذا الإعلان موطنُ امتحان واختبار يُرى فيه هل هواهم مع الله؟ أم مع الدنيا؟ وهل يقصدون بدعوتهم حظوظاً زائلةً لأنفسهم؟ أم يرجون الباقيات الصالحات؟

إن كانت الأولى فقد سقطوا، ولن يُستجابَ لهم، وإن كانت الثانية - وهي لن تكون إلا بعون من الله - فإنها لا تَنفَقُ - أبداً - مع تطلُّعهم إلى ما في أيدي الناس.

\* \* \*

والقرآن الكريم يحدِّثنا عن رُسلِ الله - صلوات الله عليهم - حديثاً مستفيضاً في هذا الجانب، ففي سورة واحدة - هي سورة الشعراء - تجري على ألسنة خمسة من الرُّسلِ الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - هذه الكلمة: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup>

١- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا

(١) الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

تَتَّقُونَ ﴿٤٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٤٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ ﴿٤٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾ ﴿١﴾

٢- ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٥٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ ﴿٥٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴿١﴾

٣- ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٥٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ ﴿٥٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴿١﴾

٤- ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴿١﴾

٥- ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ ﴿٦٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴿١﴾

(١) الشعراء : ١٠٥ - ١٠٩ .

(٢) الشعراء : ١٢٣ - ١٢٧ .

(٣) الشعراء : ١٤١ - ١٤٥ .

(٤) الشعراء : ١٦٠ - ١٦٤ .

(٥) الشعراء : ١٧٦ - ١٨٠ .

وليس هذا قاصراً على نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب - عليهم السلام - بل تراه خلقاً للأنبياء جميعاً، وبه يتميز الدعاء الصادقون.

وهل يستجيب الناس إلا لتجرّد يتغي وجه الله؟! <sup>(١)</sup>

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ  
﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ <sup>(١)</sup>

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ  
إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ <sup>(٢)</sup>

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنِ اجْتَبَىٰ اللَّهُ عَلَيَّ وَهُوَ عَلَيَّ  
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ <sup>(٣)</sup>

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup>

بل إن الدعوة الصادقين يبدلون كل ما في أيديهم في سبيل الله، ويخضعونه لمرضاته، ولا يرغبون بأنفسهم عن طاعته.

وكم رأينا بيت رسول الله ﷺ خالياً من طعام وسراج، لا عن فقر بل من جود وإيثار، وما كان ﷺ يدخر شيئاً لغد، مع أنه ﷺ يقول لغيره: « إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ حَيْرٍ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ <sup>(٥)</sup> النَّاسَ » <sup>(٦)</sup>

(١) يس : ٢٠ ، ٢١ .

(٢) الفرقان : ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) سبأ : ٤٧ .

(٤) الطور : ٤٠ .

(٥) أي يسألونهم ليمطوهم .

(٦) متفق عليه .

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: « مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْ طَعَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى قُبِضَ »<sup>(١)</sup>

وتقول عائشة - رضي الله عنها - : « مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْ خُبْزٍ بَرٍّ مَادُومٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ »<sup>(٢)</sup>

وعنها - رضي الله عنها - قالت: « مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْ خُبْزٍ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم »<sup>(٣)</sup>

وفي صحيح مسلم عن عُرْوَةَ عَن عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: « وَاللَّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْتَظِرُ إِلَى الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَ فِي آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَارٌ. قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَئُ، فَمَا كَانَ يَعْيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ، التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحٌ<sup>(٤)</sup>، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِيئَاهُ »<sup>(٥)</sup>

وروى مسلم عن الثُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قال: « لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ صلى الله عليه وسلم وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقْلِ<sup>(٦)</sup> مَا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ »<sup>(٧)</sup>

وروى مسلم عن خَالِدِ بْنِ عَمِيرِ الْعَدَوِيِّ رضي الله عنه قال: « حَظَبْنَا عُتْبَةَ بِنُ غَزْوَانَ، فَحَمِدَ اللَّهُ، وَأَتَى عَلِيَّهِ، ثُمَّ قَالَ: .... وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَا لَنَا

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) جمع منيعة، وهي الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رحلاً يشرب لبنها، ثم يردّها إذا انقطع لبنها.

(٥) رواه مسلم.

(٦) الدقل: ردى التمر.

(٧) رواه مسلم.

طَعَامٍ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا (١)» (٢)

وإذا سألت عما في أيدي الموسرين من هؤلاء الصادقين وجدته خاضعاً لمرضاة الله، ووجدت هذه النفوس تعزُّ بشيء غير هذا العَرَضِ، ولو رأت نفسها بهذا العَرَضِ ما انتصرت (( لولا انتصارها على نفسها ما انتصرت على عدوها، ولولا أنها غلبت بفضلها لم تغلب بقوتها)).

إنها قد حَفِظت عن نبيها ﷺ، وأيقنت أنه: « لَيْسَ الْعِنْيُ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ (٣) وَلَكِنَّ الْعِنْيَ غِنَى النَّفْسِ (٤)»

وروى مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنهما - أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزَقَ كَفَافًا (٥) وَقَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ (٦)»

وروى البخاري عن حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى (٧) وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفَهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ (٨)»

وروى مسلم عن عَوْفِ بْنِ مَالِكِ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟ وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةِ،

(١) أي أصابتها القروح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) العَرَضُ : ما يُتَّصَعُ به من متاع الدنيا.

(٤) منفق عليه.

(٥) الكفاف : الكفاية بلا زيادة ولا نقص.

(٦) رواه مسلم.

(٧) اليد العليا هي المنفقة المُعطية، واليد السفلى هي السائلة.

(٨) رواه البخاري.

فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: فَسَطَطْنَا أَيْدِيَنَا، وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَّامٌ تُبَايِعُكَ؟ قَالَ: عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا - وَأَسْرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا، فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلِيكَ التَّفَرِّقَ يَسْقُطُ سَوْطَ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ» (١)

وروى أحمد في مسنده عن ثوبان - مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَكْفَّلَ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ شَيْئًا وَأَتَكْفَّلُ لَهُ بِالْحَنَّةِ؟ فَقَالَ ثُوْبَانُ: أَنَا. فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا» (٢)

وروى مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكْثُرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ حِمْرًا، فَلْيَسْتَقِلْ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ» (٣) (٤)

تلك نفوسٌ وجدت غناها، فجاءت أعراضُ الحياة خاضعة طائعة.. مرّت بالأيدي، ولم تستطع أن تتسلل إلى القلوب.

نفوسٌ سمعت فتدبرّت ﴿أَتَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَنَبِينٍ﴾<sup>(٥)</sup>  
نَسَارِعُ هُمْ فِي الْحَيَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَّةٍ رَيْبِهِمْ  
مُشْفِقُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَايَتِ رَيْبِهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَيْبِهِمْ لَا

(١) رواد مسلم.

(٢) رواد أحمد.

(٣) مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكْثُرًا: أَي لِيَكْثَرَ بِهِ مَالُهُ، أَوْ بِطَرِيقِ الْإِلْحَاحِ وَالْمَبَالَغَةِ فِي السُّؤَالِ وَقَوْلِهِ: (فَلْيَسْتَقِلْ مِنْهُ): لِلتَّوْبِيخِ لَا لِلإِذْنِ وَالتَّخْيِيرِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُعَاقَبُ بِالنَّارِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنْ الَّذِي يَأْخُذُهُ بِصِيرِ حِمْرًا يُكْوَى بِهِ، كَمَا نَبَتْ فِي مَنَاقِبِ الرُّكَاةِ.

(٤) رواد مسلم.

يُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٥٢﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴿١﴾

فكان غناها في إيمانها، امتلأت الأيدي أم خلت، وعزها في يقينها، أقبلت الدنيا أم أدبرت.. كانت الدنيا بين أيديهم صغيرة، وصعرا في أعينهم تعلق همتهم بما هو خير وأبقى.

رأوا مالها ومتاعها زينة، فلم يجعلوها - فيما بينهم - قيمة، فكان تفاضلهم بتقوى الله، لا بعرض الحياة، وتسابقهم على العمل الصالح، لا على زهرة الحياة وزينتها، فظفروا بما خادمة بين أيديهم، استخدموها ولم تستخدمهم، فخدمتهم ولم تستطع أن تنفذ إلى نفوسهم، ولو نفذت إليها لفرقتها، ولو دخلت إلى القلوب لأفسدتها.

ولا يستقيم أمر الدعوة إلى الله مع إشارهم الحياة الدنيا، لا يستقيم أمرهم إلا بأن يخافوا مقام ربهم، وأن يخضعوا هواهم لطاعته ورضاه.

ولا حرج في حلال طيب كتب لهم، إنما الحرج أن تراه النفوس موطن عزها، ومجال فخرها، ومبلغ علمها.

إن امتحانها في النعم التي بين أيديها أشق من امتحانها بالمحن تمر عليها ﴿ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿١﴾، ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ ﴿٢﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾

ولكن أمر الدعوة - في عصرنا الحاضر - يحتاج إلى مزيد من القول؛ لأن الدعوة

(١) المؤمنون : ٥٥-٦١.

(٢) الأنبياء : من الآية ٣٥.

(٣) الأنعام : ٤٤، ٤٥.

عُدَّتْ وظيفَةً، وللوظيفة اعتباراتٌ وأحوالٌ، فيحسُن بنا أن ندرس الأمر على ضوء النظرة الشاملة للواقع المعاصر، وما تبدَّل من صفات، وما جدَّ من أحوال.

وقصارى ما نستطيع أن نقوله هنا: أن يكون الدعاء على عِفةٍ وتحرُّرٍ و يقينٍ تَعْلُو به همتهم، وتصغر أعراضُ الحياة في أعينهم؛ فإن عوامل الاستدراج لهم لن يصمدوا لها إلا بصِدْقِ إيمانٍ و يقينٍ، وليكونوا - دائماً - أوثق بما في يد الله مما في أيديهم، وأن يحذروا تبدُّلَ القِيمِ، فيستخفهم تفاضلُ الناس بالأعراض والزينة، فيصيبهم ما أصاب الناس من سُعارِ التكاثُرِ.

وليس معنى هذا أن يقعدوا عن طلب الرزق، أو يُؤثروا حياة العوز والفقْر، ولكن معناه:

أن يكون عزُّهم - دائماً - بما في قلوبهم، لا بما في أيديهم..

أن يكون فيهم عثمانٌ عند الشدَّة، وأبو بكرٌ في ساعة العُسرة، وابن عوف عند النازلة والفاقة..

أن يكونوا جنداً لله، يرونه ولا يرون سواه..

وأن يكون عُسرُهم ويُسرُهم خاضعاً لله، لا يرون للعُسْر فرجاً إلا من الله، ولا يرون من اليسر إلا شُكراً لنعمته وابتغاء مرضاة الله..

وهذا القَدْرُ يتحدَّد موقفُ الإنسان، ويفوز بالنجاح في جميع الأحوال.. يفوز من الشدة بخير ما فيها - وخير ما في الشدة صبرٌ واحتسابٌ - ويفوز من النعمة بما فيها، ولا يبقى من النعمة إلا شكرُها، وما يُقدَّم منها لغيره.

وهذا يصحُّ إيمان المؤمن، ويكون ((أمره كله خيرٌ، إن أصابته سراءٌ شكرَ فكانَ

خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ» (١)

\* \* \*

والداعية في حاجة إلى أن يقف عند قصص القرآن؛ ليرى نماذج من الصادقين، أنعم الله عليها، فكانوا - بما أعطوا - مثلاً يُذكر، وحديثاً باقياً في سمع الزمن يُتلى ويُتدبر.

أعطى (ذو القرنين) من الأسباب ما أعطى، فكان منهجه إخضاع كل شيء لطاعة ربه، بإقامة العدل ومحاربة الظلم.

﴿ قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٣٧﴾ وَأَمَا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ أَحْسَنُ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنَّا أَمْرًا يُسْرًا ﴿٣٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سَبًّا ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَيَّ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٤٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سَبًّا ﴿٤٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢)

وعرضوا عليه ما يجدونه من "يأجوج ومأجوج" من فساد، وطلبوا أن يجعل لهم سدًّا يحول بينهم وبين يأجوج ومأجوج.

﴿ قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٤٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي

(١) رواه مسلم.

(٢) الكهف : ٨٧ - ٩٣.

خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿١١﴾

إن الله يُمكنُ للناس لبيتليهم، فإن وفوا كان لهم مع التمكين ذكرٌ وجزاء، وإن نكثوا أذلهم، واستخلفَ غيرهم؛ لينظر ماذا يعملون.

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١١)

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۗ وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ حَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٣)

والداعية إلى الله - وهو غيٌّ بما في نفسه من إيمانٍ و يقينٍ - يأبى أن يُساوَمَ على حقٍّ، أو يُدَاهِنَ أو يُرائي.

وأنت ترى الهدهدَ في مُلكِ سليمان يعودُ - وقد توعدّه سليمانُ - أياً رافعَ الرأس ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ (١٤) لَا عَذِيبَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْحِخْنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُبِينٍ ﴾ (١٥)

النبي القائد يتفقّد رعيته، ويتعرّف أحوالها.. يرى الحاضر، ويسأل عن الغائب، ورعيته مُبصرةٌ واعيةٌ تعرف واجبها، وتنطق بالحق.

(١) الكهف : ٩٤، ٩٥.

(٢) الأعراف : ١٢٩.

(٣) يونس : ١٣، ١٤.

(٤) النمل : ٢٠، ٢١.

﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِمْ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَلٍ  
 بَنِيَّ يَقِينٍ ﴿٢٦﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ  
 عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ  
 الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٨﴾ أَلَا يَسْجُدُوا  
 لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ  
 ﴿٢٩﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

الله أكبر، أي عمل هذا؟! وأي ثقة، بل أي ولاء لله وطاعة له.

إنه الهدهد الذي يعلو بإيمانه، فيذكر - حيث يذكر - صفوة الرجال، ويؤدي  
 بمنطقه - أمام قائده الذي توعدده - في ثقة ويقين، ويستمع إليه القائد فلا يرُدُّ كلامه،  
 أو يستخفُّ به، بل يقول: ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>

إن القضية خطيرة يترتب عليها نتائج وآثار، فلا بُدَّ من الثبت قبل التحرك لهذا  
 الأمر الخطير ﴿ أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا  
 يَرْجِعُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>

وما أسرع ما يؤدي الهدهد مهمته، ويصل إلى غايته.. والقرآن في حديثه عنه  
 يطوي المسافة طياً، ويأخذك - في لحظة بصر - إلى حيث ذهب الكتاب، فلا يكاد الأمر  
 يصدر إلى الهدهد ﴿ أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ حتى ترى الكتاب هناك،

(١) النمل: ٢٢-٢٦.

(٢) النمل: من الآية ٢٧.

(٣) النمل: ٢٨.

والمهدد ينظر ويرقب.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٢﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

أي شيء يشغل نفوس المؤمنين إذا أعطوا ؟

لا شيء غير الدعوة إلى الله.

إن أسباب التمكين لم تجعل للبغي والفساد، إنما جعلت لإصلاح أحوال العباد.

تري سليمان يُسخّر كل شيء في ملكه لمرضات ربه.. إنه داع إلى الله بما أعطى، فلا يُساوم على المؤنة، ولا يتزحزح عن غايته.

أرادت ملكة سبأ - وقد وصل إليها الكتاب - أن تتعرف على حال من أرسل الكتاب.. هل هو طالب دينا فتعطيه وتأمّن شره ؟ أم له شأن غير هذا الشأن ؟

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٤﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوَا قُوَّةٍ وَأُولُوَا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَالِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

هنا منطلق الامتحان والاختبار، هنا تأتي المساومة، ويأتي الإغراء، وهو أسلوب

(١) النمل : ٢٩-٣١.

(٢) النمل : ٣٢-٣٥.

يتكرر مع كل الدعوة العاملين إلى الله.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ <sup>(١)</sup>

إنهم يفرحون بهديتهم، ولكن سليمان لا يُسرّه إلا مرضاة ربّه.

﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِمَّا أُذِلُّوا وَهُمْ صَافِرُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup>

إنها القوة تُوضَعُ حيثُ يحبُّ الله ويرضى، لا بغى ولا تسلط، بل إيمان وعمل صالح.

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٦﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٣٧﴾ <sup>(٣)</sup>

ويتهيأ أمرها إلى خضوع وإسلام بعد أن سمعت دعوة الداعي إلى الله، ورأت ما رأت من آيات وآيات، واختبرت من دعاها، فعرفت أنها أمام نفوس لها شأن.. تملك من ملك الله ما لم يُعْطِ لأحد، ولكنها تلمس الشكر لله في إخضاع كل شيء لطاعته.

إنها ليست مفتونة بما أُعطيت، أو غافلة عما ينتظرها من يوم حساب وساعة جزاء.

(١) النمل : ٣٦ .

(٢) النمل : ٣٧ .

(٣) النمل : ٣٨-٤٠ .

إنها تعيش يومها لغداها، فلا تهمل اليوم، ولا تنسى الغد... وهل يهمل اليوم وفيه زاد وإعداد؟! وهل ينسى الغد وهو آت لا ريب فيه!؟

إن الغد إذا نُسي وقع الضلال، وظهر الفساد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (١)

فلما وجدت ملكة سبأ نفسها أمام دُعاة صادقين، دانت لخالقها، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢)

والداعية إلى الله بين السراء والضراء، واليسر والعسر يتضح حاله، ويعرف أمره، وهو رابح في يسره وعُسره، وسرّائه وضرّائه، ومن عمي عن ذلك فلن يقود غيره، ولن يُرشد سواه.

ولم يُر الفقير - قط - بين صحابة رسول الله ﷺ دون الغني، ولم يُر الغني - بما أعطى - أرفع من الفقير، ولكن رُئي الجميع دُعاة إلى الله، وكان كلاهما يغبط الآخر على عملٍ صالح، لا على عَرَضٍ زائل..

والأمة التي يكون أمرها كذلك يطيبُ كلُّ فردٍ فيها بأيِّ عمل يُسندُ إليه؛ لأنه يعرف أن مكانته في إخلاصه لربه، ولا يستطيع أحدٌ أن يحول بينه وبين ذلك.

ولن تسعد الإنسانية إلا بدُعاة من ورائهم أمةٌ يكون أكرم من فيها أبرها وأتقاها، وعلى الدعاة أن يحرصوا على إيجاد هذه الأمة، والمحافظة عليها إن وُجدت ﴿ وَلِتُكُنَّ

(١) ص : من الآية ٢٦ .

(٢) النمل : من الآية ٤٤ .

مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾<sup>(١)</sup>

\* \* \*

تلك مُجْمَلُ الصِّفَاتِ التي يَجِبُ أن تَتَوَفَّرَ في الداعية، نوحها في: الإيمان، والثبات،  
والحكمة، والصبر، والتوكل، والاستغناء عمَّا في يد الناس، وابتغاء ما عند الله.

وأنت ترى أن هذه الصفات يشدُّ بعضها بعضاً، ويدلُّ بعضها على بعض، ويمثِّلُ  
الإيمان فيها أمرَ الروح، إن وُجِدَ ووجدت به جميعُ الصفات، وإن فُقدت فقدت، فكما لا يكون  
للإنسان حركةٌ بلا رُوح، فكذلك لا يمكن أن تتحقَّق صفاتُ الخير في الإنسان بلا إيمان.

ولسنا في حاجة أن نُدَلِّلَ على هذه الحقيقة؛ فواقع الحياة - وما فيها من تجارب  
- يُعْني عن ذلك، ولا يُخدَعَنَّ أحدٌ بما يرى من بعض الصفات فيمن يريدون الحياة الدنيا؛  
فإنها صفات ما لها من قرار.. إن أنت سبَّرتَ غورها ألفتيتها سراباً خادعاً، يحسبه الظمآنُ  
ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجدتها تراباً فوق صفوان، لا عمقَ له ولا ثبات، تزرؤه  
الرياحُ، أو يكتسحه الوابلُ، ويبقى ما تحته صلباً لا يُنبِت زرعاً، ولا يُعطي ظلاً ولا ثمرأ.

وكُلُّ صفات الناس تكشفها المحنُّ، وتبلوها التجاربُ، ولا شيء كالشدائد التي  
تكشفُ عن زور النفوس وبُهتاتها، أو صدق القلوب وإيمانها.

وصفاتُ الناس في امتحان دائم بالسَّراء والضراء ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ  
الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي

(١) آل عمران : ١٠٤ .

جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴿<sup>(١)</sup>

ولا ثبات في امتحانٍ بغير إيمان، ولا نتائج تُرجى لخير الناس بغير يقين.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَضَرَبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٤٠﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۗ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٤١﴾ ﴿<sup>(٢)</sup>

إن صفات الداعية ظلُّ يأوي إليه الناس، وعطاء دائم يشدون به وهم يُواجهون شئون الحياة، فيبتلون ولا يُقتلَعون « كَالْحَامَةِ <sup>(٣)</sup> مِنَ الزَّرْعِ، تُغِيثُهَا الرِّيحُ مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً <sup>(٤)</sup>»، وربما زادتها الرياح ثباتاً وامتداداً.

ومن سنة الله أن يعلو الإيمان، وأن ينتصر جُنده.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٤٢﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا مَحْزَنُوا ۚ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ ۗ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ

(١) الأنفال : ٣٧ .

(٢) إبراهيم : ٢٤-٢٧ .

(٣) الحامة : الشجرة الغضة الرطبة .

(٤) رواه البخاري .

ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ (١)

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ  
الْأَشْهُدُ ﴾ (٢)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ  
فَأَنتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۗ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

لن يُخَذَلِ الإنسانُ إلا من عمله، ولن تُضار أمة الإسلام إلا من داخلها.

إن حصنها في قلبها، وعزها فيما تعتمزه وتقصده، فإن كانت لإيمانها بربها عزت،  
وإن خرجت عنه ذلت، وسقطت في يد عدوها، وكانت له الغلبة حتى تفيء إلى أمر الله.

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤)

إن صفات الداعية يجمعها « علم وعمل » علم يرتبط بفضرة القرآن، ويمتدُّ به،  
فيؤتي ثماره عملاً صالحاً في كلِّ مجال، والمعرفة تتسع وترتفع بسمو الغاية وشرف  
الباعث، وهي إن لم تُحكَم بضوابط القرآن، وتهتدي بهديه تعثرت خطاها، ودُمِرت  
نتائجها، وكان الإنسان - وهي من قامت به وله - أشقى شيء بها، وهي لكي تُصان  
وتؤتي ثمارها لا بُدَّ أن يحملها عملٌ هادف ذو غاية رحيمة بالإنسان حيث كان، ولن  
يكون العمل كذلك إلا إذا استنار بالقرآن الكريم، فهدي إلى التي هي أقوم.

(١) آل عمران : ١٣٧ - ١٤٠.

(٢) غافر : ٥١.

(٣) الروم : ٤٧.

(٤) آل عمران : ١٣٩.

وللدعاة في تجربة الحياة إماماً وقُدوةً، ولهم في رسول الله ﷺ خير أسوة ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١)

ومع أن الله - جلُّ وعلا - قد حفظ كتابه، ولم يدع حفظه لأحد من خلقه، فإنَّ لكلِّ جيل مع هذا الكتاب عملاً، والكتاب قائم يدلُّ الناس على الطريق، ويشهد على العباد، وهو حُجَّةٌ لهم أو عليهم.

إن الدين - بحقائقه - ثابتٌ ثابتٌ سنن الفطرة في الوجود ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبُدْنَ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) والمتحدد هو قضايا الناس الناشئة عن ضروب حياتهم واختلاف شئوهم وأحوالهم، وتلك تخضع للأصول الثابتة، وتتصل بها كما يتصل الفرعُ بأصله، فيكتسب أسباب الحياة والنماء، ويؤتي ثماره بإذن ربِّه، وكلُّ فرع ينفصل عن هذه الأصول الثابتة ولا يستند إليها، لا بُدَّ أن تبطل فائدته، وتعدم منفعته.

وكُلُّما كان المسلمون مع الله مخلصين له الدين، كُلُّما سهل عليهم - بتوفيق من الله - إخضاع قضاياهم المتحددة - في أي زمان ومكان - لحكم دينهم.

والذين يرون صعوبة إخضاع هذه القضايا المتحددة المتنوعة - والتي يرونها قد خطت شوطاً بعيداً في النمو والتطور - يفوتهم أن يعلموا أن الصعوبة منشؤها التفريط.

(١) الأحزاب : ٢١ .

(٢) الروم : ٣٠ .

في قيام الأصول في حياة المسلمين، وأعني بها العقيدة وما يرتبط بها من فرائض بُني الإسلام عليها.

وإخضاع القضايا المتجددة عمل من أعمال الدعوة يستوجبُ فقهاً وبصيرة، كما يستلزمُ معرفةً واسعةً بقضايا العصر وشتونه.

والدين - بحقائقه - أين قريب، بعيدٌ في علو مكانه بحيث لا ينطوي في جزئية زمنية محددة ينتهي بانتهائها، قريب في فطرة الناس بلا عُسرٍ ولا حَرَجٍ، ولا يُعدهم عنه إلا تعسف مقيت أو هوى متسلط.

إنه كالشمس في الكون، تُخالط كل شيء، ولا يمكن أن تُحبس في شيء..

وقضايا الناس أشبه ما تكون بدورهم التي يسكنونها، ويعنون أن تكون فيها نوافذ لشمس وهواء، والشمس ما قصرت - وهي مسخرة بأمر ربها - في مد شعاعها، وإعلان ضوئها، وهي تمتد إلى القصر والكوخ، والقريب والبعيد، بلا محاباة أو تفرقة.

والذين يتصورون الدين شيئاً غير هذه الفطرة الهادية يظلمونه ويسئون فهمه.

إن الدين يريد أن تنعم الدور بأسباب الطهر والعافية، فلا تُحبب - بفعل الهوى - عن شمس وهواء، أو تُغلق فُتحرم من أسباب الحياة، وتكون مأوى لهوام الأرض، خربة لا أُنس فيها ولا أمان.

إن الدين هو الفطرة، والفطرة سمحة سخيّة، لا عُسرَ فيها ولا تعقيد.

إن أهواء الناس هي التي تُفسد، والدين يحارب الهوى؛ حتى لا يبعد الناس عن فطرتهم السَّمحة، ويتكروا لأسباب حياتهم.

إن قضايا الناس ثمار لا يُنتفعُ بها إلا في شمس الدين وهوائه، ولا تُبث في غير

تربته، ولا تحيا بغير مائه.

وكل من يُعِد قضايا الناس عن الدين متسلطاً جائراً، لا يحبُّ أن يطيب لهم ثمر، أو ينمو لهم نبتٌ أو شجر.. إنه يريد أن يقطعهم عن أسباب الحياة من شمس وهواء وتربة صالحة وماء، واهماً أنه رابح، مع أنه أول الخاسرين.

﴿ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَنَسِيْرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَهُ  
الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١)

\* \* \*

وعملُ الدُّعاة أكبر من أن يكون بالكلمة وحدها، إنهم مطالبون أن يُقيموا - في حياة أمتهم - حضارةً مُعبِّرةً عن دينهم، حضارةً يُرى فيها الإنسان، يُغزى بها القريبُ والبعيدُ، ويأوي إليها العدوُّ والصديق، لذا كان من عملهم الملائمة - دائماً - بين التخصصات المتنوعة؛ لتدرك أن عملها نابعٌ من الدين وليس بعيداً عنه، فإن أخطر ما رُميَ به عالمنا الإسلامي هو تحقيق التباين والصراع بين فروع المعرفة، وإيقاع الفرقة بينها، وإبداء أن لا علاقة لها بالدين، مما تأباه فطرة الإسلام وتُكرهه؛ فإن فطرة الإسلام تجعل عمل الإنسان ونشاطه كله ديناً ما دام مرتبطاً بأداب الإيمان ودافع التضحية.

ولكن الذين يُخطِّطون لتدمير العالم الإسلامي يأبون إلا أن يجعلوا للدين رجالاً يسموهم بسِماتِ العزلة، ويوقعون بينهم وبين غيرهم بإضفاء ألقاب (التقدم) على هؤلاء، (والرجعية والتخلف) على أولئك، والمقصود هو (الدين)، لا تكريم هؤلاء، ولا إهانة أولئك.

وترى ذلك منهم في جانب الإسلام وحده؛ لعزله عن الحياة، وغاب عنهم أن

(١) آل عمران : ١٣٧.

الإسلام شمسٌ ترتفع على جميع محاولاتهم، ولن تنطفئ بأهوائهم، ولن خُدعَ جيلٌ ستصحو من بعده أجيالٌ، وسترى الإنسانية من التجارب المبررة ما يجعلها يوماً تفيء وتعود، فتعلن للذين أضلّوها، أو انحرفوا بمسيرتها أنه لا خلاص لها إلا في ظل الإسلام.

والدعاة المخلصون - وهم يعون هذه الحقيقة - عليهم ألا يهتوا أو يضعفوا، أو يتسرّب إلى نفوسهم بأسٌ أولئك؛ فإن عليهم أن يُحسنوا المقدمات، وأن يتقوا في النتائج، وأنهم راجحون في جميع الأحوال، فإن أذن الله في لقائه، فقد ربحوا رضاه، وإن أرسل الله نفوسهم إلى أجل، كان لهم شرفٌ المزيد من ذكرٍ وتقى وعملٍ، وهم على أعمالهم وصدقهم يُجازون، لا على هداية الناس يُحاسبون.

عليهم إن يفوتوا على العدو خطته في إيجاد صراع بين الدّين والمعرفة؛ فإن لكل فرع وتخصص موضعه في قيام الحضارة التي ينشدها دينهم، إن الجسد الواحد تنوعُ أجهزته وتفاوت، لكنها تسعى - كلها - في تحقيق غاية واحدة، وإن الكون تتعدّد آياته، وتتجدّد غايته، وهذه الآيات المتنوعة والأجهزة المتعددة تتعاون وتآزرُ ويُوأخي بعضها بعضاً، ويشدُّ بعضها بعضاً، وتدل - كلها - على خالق واحد، وتدعو إلى عبادة إله واحد.

﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ  
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾<sup>(١)</sup>

ولا يمكن أن يُحقّق الداعية شيئاً لدعوته ما لم يكن أعيرَ عليها من كلّ ما يحرص الناسُ عليه، فهو لا يودُّ لها أن تُهزم في حياة الناس، أو تُعزلَ عن شعوبهم، وهذه الغيرة

(١) الأنعام : ١٠٢.

الفطرية الصادقة تحمله على أن يكون عاملاً في تحقيق الروابط بين الناس محققاً للبرِّ بينهم؛ فإنَّ الفرقة أخطر شيء يُهدِّد حاضرَ الأمة ومستقبلها.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(١)</sup>

والداعية لن يصنع شيئاً من ذلك إلا إذا كان قصده فيه مرضات ربِّه، ولن يجتمع ذلك - أبداً - مع طلبِ المنفعة والشُّهرة.

روى الترمذى عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: « مَا ذُبَانَ جَائِعَانَ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرْفِ لِدِينِهِ »<sup>(٢)</sup>

إنَّ حِرْصَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْمَالِ وَالْجَاهِ يُعَوِّقُ خُطَى الْإِنْسَانِ، ويشغله عن العمل للحقِّ، أو التجرّد له، والنفس وراء ما تحرص عليه.. وقد أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال، فلا بُدَّ من ترويض النفس وتدريبها على أن تتخلَّصَ من كُلِّ شاغلٍ يشغلها عن إخلاصِ النِّيَّةِ والدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

والداعيةُ - بصفاته - يستطيع أن يستعين - بعد ذلك - بالوسائل الفطرية من سنن الله وآياته، فيُحسِّنُ توجيهِ النظر إليها بالصورة الملائمة لمن يخاطبه، وكذلك فعَلَ رُسُلُ اللَّهِ وأولوا العزمِ منهم، قد خاطبوا الناس بآيات الله في الآفاق وفي أنفسهم.

\* \* \*

(١) آل عمران : ١٠٥ .

(٢) رواه الترمذى .

## ثانياً: الكونُ بآياته داعٍ إلى الله وهادٍ إليه

يُخاطَبُ الإنسانُ بآياتِ الله المنزلةِ على نبيه ﷺ، كما يُخاطَبُ بآياتِ الله في الأنفس والآفاق.

وفي كلِّ شيءٍ لله آيةٌ تدلُّ عليه، وتنبئُ عن تفرُّدهِ ووحدانيته، وتُذكِّرُ الناسَ أن يعبدوه وحده لا شريك له.

﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ ءَإِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاثَ بِهِجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَهُ اللَّهُ ۗ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَهُ اللَّهُ ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَهُ اللَّهُ ۗ قَلِيلًا ۗ مَا تَذَكَّرُونَ ﴾<sup>(٥)</sup> أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَهُ اللَّهُ ۗ تَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾<sup>(٦)</sup> أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ

(١) البينة : من الآية ٥ .

يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ  
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ (١)

وآياتُ الله - كما نرى - قد جعلها الله سبباً ترتبطُ به حياةُ الإنسان، ويمتدُّ  
 سَعْيُهُ؛ فهي تتحدَّثُ إليه دائماً، وتُذكِّرُهُ في جميع الأحوال. إنها خلقت له، فَحَرِيٌّ به أن  
 يهتدي بها، وأن يستمعَ إليها، والألَّ يُصْرَفَ بها عن توحيد الله وطاعته.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلٍ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ  
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٥﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ  
 رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٦﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ  
 الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٧﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا  
 وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ  
 اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
 فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٩﴾ (١)

ولكنَّ دعوةَ الأنبياء إلى الله، ودلالاتها عليه لا يعيها، ولا يتذكَّرُ بها إلا مَنْ كان  
 له قلبٌ، أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيد.

فإن آياتِ الله في الكون فيها متاعٌ ودلالةٌ.

والمَتَاعُ يشتركُ فيه الإنسانُ مع الأنعام ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ ﴿٧٤﴾  
 أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٧٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٧٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٧٧﴾

(١) النمل : ٥٩ - ٦٤.

(٢) غافر : ٦١ - ٦٥.

وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَاقٍ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَيْكِهَةً وَأَبًا ﴿٣١﴾  
مَتْنَعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ ﴿٣٢﴾ (١)

والدلالة ينفردُ بها الإنسان، بما منحه الله من سمع، وبصر، وفؤاد ﴿ وَاللَّهُ  
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ  
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)

والناسُ أمام آيات الله فريقان:

فريقٌ فتن بالمتاع، فَشُغِلَ به، واطمأن إليه، ولم يلتفت لدلالته، رضوا بالحياة  
الدنيا، واطمأنوا بها، وغفلوا عما سواها.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (٢)  
﴿ أَمْ حَسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۗ إِنْ هُمْ إِلَّا  
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٣)

والأنعام لا ضمير عليها؛ لأنها لم تُؤهَلْ للتبصرة والذكرى، ولكن هؤلاء قد عطّلوا ما  
وهبهم الله من حواس، فلم يستبصروا أو يعتبروا، فكانوا كالأنعام، بل هم أضلّ.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ ۗ هُمْ قُلُوبٌ لَا  
يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ أُولَٰئِكَ

(١) عبس : ٢٤ - ٣٢.

(٢) النحل : ٧٨.

(٣) محمد : من الآية ١٢.

(٤) الفرقان : ٤٤.

كَأَلَّا نَعْمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

وفريقٌ استبصرَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ، وأدرك دَلَالَتَهَا، وَعَرَفَ غَايَتَهَا، أدرك أن النِّعْمَ فيضٌ من الله، وفضلٌ منه، فاستعان به، وتوكلَ عليه، وأخلصَ القصدَ له، ولم يُشْرِكْ بعبادة رَبِّهِ أَحَدًا.

فهو يذكرُ اللهَ بِنِعْمِهِ، ويشكرُهُ ولا يكفرُهُ، ويعرف أن خيرَ ما في هذه النِّعْمِ أن يعي دَلَالَتَهَا، وأن يستبصرَ بها، وأن يعتبرَ بما فيها.

ولذا رأينا القرآنَ الكريمَ يَخُصُّ بالآياتِ هذا الفريقَ وحده دون سواه؛ لأن غيره لم يعتبرَ بها، ولم ينتفع بدَلَالَتَهَا، وإن تمتع وأكل كما تأكل الأنعام.

﴿ إِن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٠﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٨١﴾ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

﴿ أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿١٨٣﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿١٨٤﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١٨٥﴾ ﴾

\*\*\*

ولكن هل تُرك الإنسانُ لآياتِ الكونِ وحدها تُخاطبه وتحدِّثه، وتُذكِّره

(١) الأعراف : ١٧٩ .

(٢) الحانية : ٣ - ٥ .

(٣) ق : ٦ - ٨ .

وَتُبَصَّرَهُ؟ أم اقتضت عناية الله أن تَنْزِلَ آيَاتُ الْوَحْيِ عَلَى رُسُلِهِ؛ لَتَسَاحَى مَعَ آيَاتِ الْكُرُونِ فِي مَخَاطَبَةِ الْإِنْسَانِ؟

إن الله - جلَّت قدرته - لم يترك الناسَ لخطاب الكون وحده - مع ما فيه من آيات ذات تأثير بالغ - بل أرسل رُسُلَهُ بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.

ونرى رُسُلَ اللَّهِ - صلوات الله عليهم - يلفتون نَظَرَ النَّاسِ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكُرُونِ؛ كَسَبَبٍ لِتَقْرِيرِ الْإِيمَانِ، وَتَثْبِيتِ الْيَقِينِ، وَهُوَ سَبَبٌ قَائِمٌ مَعَ الْإِنْسَانِ حَيْثُمَا كَانَ.

فآية الله في الزَّرْعِ وَالزَّيْتُونِ وَالنَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ، وَفِي كُلِّ الثَّمَرَاتِ، آيَاتِهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجْمِ، آيَاتِهِ فِي مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَفِيمَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، تَرْتَبِطُ بِهَا حَيَاةُ النَّاسِ، وَيَقُومُ عَلَيْهَا مَعَاشُهُمْ؛ إِذْ لَا غِنَى لَهُمْ عَنِ مَاءٍ وَهَوَاءٍ، وَأَرْضٍ وَسَمَاءٍ، وَزُرُوعٍ وَثَمَرٍ، وَشَمْسٍ وَقَمَرٍ.

وهنا نجد جمالَ الفطرةِ وَأَسَاقِهَا وَهِيَ تُقَدِّمُ أَسْبَابَ الْمَعْرِفَةِ فِيمَا يَنْشُدُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ مُتْعَةٍ وَمَنْفَعَةٍ، فَتَجْعَلُ أَسْبَابَ الْإِيمَانِ غَيْرَ مَنْفَصِلَةٍ عَنِ شَعْنِ الْإِنْسَانِ، إِنَّهَا لَيْسَتْ بَعِيدًا عَنِ مَأْكَلِهِ وَمَشْرَبِهِ، وَلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَمَا يَقَعُ أَمَامَ بَصَرِهِ، وَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي نَفْسِهِ.. إنه يراها فيما سخر الله له، وفيما أسبغ عليه من نِعَمٍ ظاهرة وباطنة، إنه يجد في نِعَمِ رَبِّهِ أَسْبَابَ مَعْرِفَتِهِ وَخَشِيَّتِهِ.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿١٦٦﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٦٧﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۗ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا

مُخْصُوهاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿١١﴾

\* \* \*

هذه الوسيلة الفطرية في الدَّعْوَة إلى الله هي أقوى الوسائل وأبعاها، والناس مهما اختلفت درجات معرفتهم - باختلاف الزمان والمكان - يجدون في النظر إلى الكون آية ودلالة، وتبصرةً وتذكرة.

ولذا نرى رُسُلَ الله - صلوات الله عليهم - قد تأخّت كلمات السوحي على ألسنتهم مع آيات الكون في مخاطبة الإنسان، والإنسان - وهو يتلقّى عنهم - يرى صدقَ الكلمات على صفحات الكون، وفي أعماق النفس، والكون يُردّد صدقَ الكلمات في خشوع أخذ تقشعُر منه جلودٌ، وتلين قلوبٌ، فتبقى وسائل الدَّعْوَة إلى الله ما بقيت السموات والأرض.

﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَهاً لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَئِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِرَاجاً وَقَمَراً مُنيراً ﴿٢١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ (٢)

نرى نوحاً عليه السلام يدعو قومه ليلاً ونهاراً، جهاراً وإسراراً، يدعوهم إلى عبادة الله

(١) إبراهيم : ٣٢ - ٣٤ .

(٢) الروم : ٣٠ .

(٣) الفرقان : ٦١ ، ٦٢ .

وتقواه ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ (١)

ويتخذ من آيات الكون شاهداً لدعوته وسبيلاً لمعرفة الله وخشيته ﴿ فَقُلْتُ  
 أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١﴾ يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢﴾  
 وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٣﴾ مَا لَكُمْ لَا  
 تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٤﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ  
 سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٦﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿٧﴾ وَاللَّهُ  
 أَنْبَتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٨﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٩﴾ وَاللَّهُ  
 جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٠﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١١﴾ (١)

يخاطب نوح عليه السلام قومه بهذه الآيات التي نراها على صفحة الكون، وتراها  
 الأجيال من بعدنا.. فلما، والمال، والبئون، والجنات، والأهبار، والسموات وما فيهن  
 من شمس وقمر، والأرض وما فيها وما عليها، من خلق الإنسان فيها، ومشيه في  
 مناكبها، وإعادته فيها.. كل ذلك قائم بين أيدينا، ماثل أمام أعيننا، تراه الأجيال فتجد  
 فيه التبصرة والذكرى.

ولكن آيات الكون - التي تحمل من الدلالة للإنسان ما تحمل - يمكن أن تكون  
 - بأمر الله - في مصلحته ومنفعته، ويمكن أن تتحوّل - عندما تُؤمّرُ - إلى وسائل  
 عذابٍ ودمارٍ.

فالأرض التي يُذكرُ الإنسان بنعمة استقرارها وتسخير ما بها، يمكن أن تُحسّف

(١) نوح : ٣.

(٢) نوح : ١٠-٢٠.

بأهلها، وأن تتلع ما فوقها، وأمرها - في الحالين - بيد الله وحده.

﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ (١)

والماء الذي يُذكرُ الإنسانُ به، وأن الله - بفضله - جعله عذباً فُرَاتاً، ولو شاء جعله ملحاً أجاجاً.. الماء الذي جعل الله منه كُلَّ شيءٍ حيٍّ، يمكن أن يُعور في باطن الأرض، فلا تصل إليه وسائل الإنسان ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (٢)، ويمكن أن يُصرف عن الناس، وأن يُحبس فيهلك الحرث والنسل.

وإذا كان الحقُّ - جلٌ وعلا - قد جعل من الماء كُلَّ شيءٍ حيٍّ، فإننا - معشرَ البشر - لا نحتمله إلا بمقدار، ولو زاد لطفى ودمر ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (٣)

ولا يملك أمرَ تسخيرِه وتقديرِه إلا الرحمن الرحيم؛ فهو وحده الذي يُصيبُ به من يشاء، ويصرفه عمَّن يشاء.

﴿الْمَرْتَرَانِ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِعَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ (٤)

(١) الملك : ١٦ .

(٢) الملك : ٣٠ .

(٣) المؤمنون : ١٨ .

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٤﴾ (١)

هذا الماء العذب النافع المفيد يمكن أن يتحوَّل بأمر الله إلى أداة بَطْشٍ وتدمير للظالمين.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٥﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ ﴿١٦﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٧﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَدُسْرِ ﴿١٨﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٩﴾ (٢)

أرايتَ كيف يكون الماء نافعاً مفيداً؟! وكيف يدمرُ ما عمَّرَ بأمر ربِّه!؟

تري الماء هنا مسخراً للنجاة، ومسخراً للهلاك.

ولن ينفع المهالكين أن يعتصموا برؤوس الجبال، ولو كان المعتصم ابن نبي ورسول، ولن يضير الناجين أن تجرى بهم السفينة في موج كالجبال - فباسم الله مجراها ومرساها - إنها تجري سالمة آمنة حتى تستوي على الجودي، بعد أن قضى الأمر، وأمرت الأرض أن تبتلع ماءها، وأن تُقلع السماء بإذن ربها.

﴿ وَقِيلَ يَتَّزِضُ الْجَبَلُ مَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿٢٠﴾ وَيَسْمَاءُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴿٢١﴾ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ (٣)

ويظل الماء - في جميع الأحوال - آيةً من آيات الله، وهو يسوقه إلى بلد ميت

(١) النور : ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) القمر : ١٠ - ١٤ .

(٣) هود : ٤٤ .

فيحيي به الأرض بعد موتها، وهو الذي يرسل الرياح بُشْرَى بين يدي رحمته.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿١٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِي كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٢٠﴾ ۝ ﴿١﴾

وعندما يأمره فيكون طوفاناً غامراً، ينجو به الناجون، ويهلك به الهالكون ﴿ إِنَّا

لَمَّا طَغَا الْمَاءُ خَمَلْتُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿٢٠﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَتَعْيِبًا أَدْنَ وَعَيْةً ﴿٢١﴾ ۝ ﴿٢﴾

إنه - في جميع الأحوال - داع إلى الله بلسان الحال لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

وكلُّ نعمة من الله يمكن أن تكون - بشكرها - للإنسان نعمة، وأن تتحول - بكفرها - على الإنسان نعمة، وما أكثر ما تجذب عذاب الناس بالنعمة التي أُهمِلَ شكرها.. قد يقع ذلك في الدنيا، وهو واقع - لا محالة - في الآخرة.

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ۝ ﴿٣﴾

\* \* \*

(١) الفرقان : ٤٨ - ٥٠.

(٢) الحاقة : ١١ ، ١٢.

(٣) الجاثية : ٢٢.

ونرى إبراهيم عليه السلام - وقد آتاه الله الحجة على قومه - يتخذ من آيات الله في الكون سبيلاً لإقناعهم وطلب هدايتهم، وصرفهم عن عبادة الأوثان إلى عبادة الله وتقواه.

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُوْنُ مِنَ الْمُؤَقِقِيْنَ ﴾ (١)

إن اليقين قد قام في نفس إبراهيم أولاً، كما قام الإيمان في نفوس الرسل جميعاً - عن معرفة ومشاهدة - قبل أن يطالبوا الناس بالإيمان.

﴿ ءَامَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَٰئِكْتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴾ (٢)

فهو يدعو قومه إلى ما آمن به، واطمأن قلبه إليه ﴿ قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ ۗ وَأَنَا عَلَىٰ ذٰلِكُمْ مِنَ الشَّٰهِدِيْنَ ﴾ (٣)

ولما اجترأ على المحاجة في الله كافرًا أبطره الملك، دحّض إبراهيم عليه السلام حجته بآية من آيات الله في الكون.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرٰهِيْمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَنَّهُ اللّٰهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ

(١) الأنعام : ٧٥ .

(٢) البقرة : ٢٨٥ .

(٣) الأنبياء : ٥٦ .

إِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴿١﴾

وانظر إليه وهو يحاور أباه وقومه.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكِفِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٩﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٨٢﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٨٣﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ﴿١﴾

انظر كيف يُحدِّدُ موقفه من الباطل، بعد أن أقام الدليل على بُطلانه من أفواه المتعلِّقين به ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فلا سمع، ولا نفع، ولا ضرر.. وما عبدهم لأن فيهم شيئاً من ذلك، بل هي المحاكاة لفعل الآباء ولو كانوا في ضلال مبين.

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٨٢﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٨٣﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

إن إبراهيم عليه السلام يعلن عداوته للباطل بعد أن أثبت لقومه بُطلانه، ويظهر ولاءه للحق ويدعو إليه، لا بمنطق التقليد والمحاكاة، بل بسُلطان الحجَّة والدليل.. وكم من

(١) البقرة : ٢٥٨.

(٢) الشعراء : ٧٠ - ٧٧.

دليل تُبصره في آيات الله التي أشار إليها في الخلق والهداية، والرزق والعتاء، والصحة والمرض، والإماتة والإحياء.

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾  
وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِي ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُعَيْتَنِي  
ثُمَّ يُخَيِّبُنِي ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ <sup>(١)</sup>

وما أجمل أن ترى ضميرَ الفعل ﴿ هُوَ ﴾ في المقام الذي يُتوهم فيه أن أحداً غير الله يمكن أن يصنع شيئاً في أمر الهداية والرزق والشفاء.. إن ضميرَ الفِصل هنا يفيدُ أن الله وحده هو الذي يملك ذلك، فلا يصحُّ أن تتوجَّه النفوسُ لأحدٍ سواه.

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٦١﴾ <sup>(٢)</sup>

وقد يفعل كثيرٌ من الناس - وهم يلتمسون أرزاقهم، أو ينشدون مخرجاً من ضيقهم - أن يمدون أسبابهم إلى غير الله، فتقطع بهم الأسباب! والناس - قديماً وحديثاً - يتعلقون بمن يرونه ذا تأثيرٍ في شؤونهم، فيتقربون إليه، ويُعلنون خضوعهم له.

فلا بد لمن يريد أن يُجرِّدَ نفوسهم لعبادة الله وطاعته أن يُوقفهم على حقيقة

(١) الشعراء : ٧٧ - ٨٢.

(٢) العنكبوت : ١٦ - ١٧.

المؤثرات - في جميع شئونهم وأحوالهم - حتى تسلم العقيدة التي بعث الله الرُّسُلَ جميعاً من أجلها.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾<sup>(١)</sup>

\* \* \*

والحديث عن آيات الله في الكون على ألسنة الرُّسُلِ مُحدِّدٌ هادِفٌ، فيه تبصرةٌ وتذكُّرةٌ.

أولاً: بيان أنها مخلوقات لله، خاضعة له، مُسَبَّحةٌ بحمده. فتسخيرها وتأثيرها بأمره، ولا ينبغي لها أن تحيدَ عمَّا أمرت به.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ<sup>٢</sup> إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>

ثانياً: بيان أن الخضوعَ واجبٌ، ليس لها بل لخالقها. إذ لا يصحُّ أن يُسوَّى بين مخلوق وخالق.

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) الأنبياء : ٢٥ .

(٢) الحج : ٦٥ .

(٣) النحل : ١٧ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا  
لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١)

فالعبادة إنما تكون لله الذي خلق كل شيء، ويده كل شيء.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى  
عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ  
مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١)

ثالثاً: بيان أن جميع العوارض التي تُرى في الناس - من صحة ومرض،  
وغنى وفقير، وضحك وبكاء، وحياة وموت - مرجعها إلى الله وحده.

وفي صحف إبراهيم وموسى - عليهما السلام - ممّا جاء في القرآن الكريم  
﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿١٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿١١﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ  
الرُّوحَ الْجَنِّ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿١٠﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٩﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى  
﴿٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى ﴿٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٦﴾ ﴾ (٣)

وتأمل أيضاً ضمير الفعل ﴿ هُوَ ﴾ في هذه المواضع؛ لتدرك ما يفيد من قصر  
هذه الأمور على الله وحده، فلا يملكها أحدٌ سواه، وقد جاء الضمير فيما يُتوهم أن  
للمخلوق مدخلاً فيه - من الإضحاك والإبكاء، أو الإماتة والإحياء - ليدفع هذا  
التوهم، وليؤكد أن هذه الأمور - كغيرها - مرجعها إلى الله وحده.

(١) فصلت : ٣٧.

(٢) الأعراف : ٥٤.

(٣) النجم : ٤٣ - ٤٩.

آيات الله تُرى في النفس والكون دالةً عليه، وداعيةً إليه، تأتي على ألسنة الرُّسُل في مجال الهداية إلى الله والإخلاص له؛ لتتم الحشية التي تستقيم بها الأعمال وينضبط السلوك ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾<sup>(١)</sup>

وواجب أن يُتخذَ بيان الرُّسُل أساساً في البحث والنظر في الكون؛ حتى لا يُفتن الناسُ بالنتائج، وينسون جانبَ العبرة والدلالة؛ وحتى يحقّقَ النظرُ غايته من الاعتراف بالخالق، والبرِّ بالمخلوق.

\* \* \*

إن آيات الله في الكون قد ثلّيت على ألسنة الرُّسُل في وحي يُوحَى؛ لتطهير النفوس بعبادة الله وحده.. رأينا ذلك على لسان نوح وإبراهيم، ونرى موسى عليه السلام وقد أرسله الله إلى فرعون وقومه.

﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ ﴿ ١١ ﴾ ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنَا ﴾ ﴿ ١٣ ﴾ ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ ﴿ ١٤ ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبَأُ فِي ذِكْرِي ﴾ ﴿ ١٥ ﴾ ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ﴿ ١٧ ﴾<sup>(٣)</sup>

من أجل تبصرة النفس وتذكرها، من أجل تزكيتها وتطهيرها، من أجل هدايتها وخشيتها تُساق الآيات.

(١) النازعات : ١٩ .

(٢) النازعات : ١٦ - ١٩ .

(٣) طه : ٤٢ - ٤٤ .



العبادة دون سواه، فيعمد إلى سؤاله عن القرون الأولى ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ؟

ولكن موسى عليه السلام يُصِرُّ على المُضي في كشف أمره، وإبطال باطله، بإثبات الربوبية لله رب العالمين، الذي له كلُّ شيء، وأحاط بكلِّ شيء علماً، يُعلم أنه استحقَّ العبادة وحده لا شريك له ﴿ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾

ولا يكفي بهذا، بل يمضي في تعريف الإله الحقَّ بآياته الدالة عليه ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ ﴿ كَلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴾

إنها المجاهدة الصريحة الواضحة بالآيات النيرة الساطعة التي لا يغفل عنها إلا من أفسدوا عقولهم، وعطلوا حواسهم ﴿ وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِيَجْهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ <sup>(١)</sup>

لقد بلغ موسى رسالة ربه، ووضع الحقيقة كاملة ناصعة أمام عدو الله، ولقد حاول فرعون أن يصرفه عن إثبات هذه الحقيقة؛ حتى لا تبطل دعواه، وينكشف كذبه أمام من استخفهم فأطاعوه.

(١) الأعراف : ١٧٩.

حاول ذلك بضروب مختلفة تظهر لك - بجلاء - في الحوار الذي جاء في سورة الشعراء، وموسى عليه السلام يمضي في حُجَّتِه في ثبات وفطنة، واستقامة وعفاف ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾<sup>(١)</sup>

إنه يسأل منكراً أي شيء رب العالمين؟ وقد قال له موسى وهارون من قبل ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>، وهو يُنكر أن يكون للعالمين ربٌّ سواه، حسبما يُنبئ عنه قوله: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾<sup>(٤)</sup>

يقول موسى: ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ ﴾<sup>(٥)</sup> ويخاف فرعون أن يؤثر ذلك في قلوب قومه، وأن يُدعِنوا لموسى ودعوته، فيُبدى تعجباً كذوباً لمن حوله عندما سمع جواب موسى ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾<sup>(٦)</sup>، وكأنه يقول لهم: استمعوا وتعجبوا من موسى الذي يذكر رباً سواي !!

وهنا نرى موسى عليه السلام ماضياً في دعوته، يحط من ادعائه الربوبية، ويضعه - وغيره - في مرتبة الربوبية ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾<sup>(٧)</sup>

(١) الشعراء : ٢٣ .

(٢) الشعراء : من الآية ١٦ .

(٣) النازعات : من الآية ٢٤ .

(٤) القصص : من الآية ٣٨ .

(٥) الشعراء : ٢٤ .

(٦) الشعراء : ٢٥ .

(٧) الشعراء : ٢٦ .

عندها يشنّ فرعونُ غضباً، ويلجأ إلى أسلوب العاجز السّفيف، مُخاطباً قومه ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾<sup>(١)</sup>

ولكن موسى لا يلتفت إلى جهله وسّفهه، بل يمضي ثابتاً في إبداء حُجّته وتبليغ دعوته ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>

وترى في إجابة موسى - في كُلِّ مرّةٍ - ما يُناسبُ المقامَ، فمع التدرج في الدليل - من التعميم إلى التخصيص - نراه يلوّح لهم بأن ما رمّتموني به من الجنون أنتم أحقُّ به؛ فلو كنتم من أهل العقل لعلمتم أن الأمر كما قلتُ، ولكن تلويحُه أو تصرّجه لا يأتي مجرداً عن الدليل، بل يحقّق - أولاً - قضيته بأبّين الآيات وأظهرها من شروق الشمس وغروبها، بعد بيان ربوبيته تعالى للسموات والأرض وما بينهما، وإذا اكتملت أسباب المعرفة واليقين واضحة - بحيث لا تشبهه على من له عقل - كان المنكر بمعزل من دائرة العقل، وكان كمن لا عقل له.

وعندما سمع فرعون ما سمع، وظهر عجزه، وبطلت دعواه أمام قومه، لجأ إلى أسلوب الطغاة الذين لا يُجابهون الحجة بالحجة، ويردّون الدليل بالدليل ﴿ قَالَ لَئِن آتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾<sup>(٣)</sup>

إنه أسلوبُ أعداء الحق حيث كانوا، فقومُ إبراهيم - من قبل - يُجابهون حُجّته بقولهم: ﴿ آتَّبُوا لَهُ بَنِينًا فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾<sup>(٤)</sup>، وقوم نوح من قبل

(١) الشعراء : ٢٧ .

(٢) الشعراء : ٢٨ .

(٣) الشعراء : ٢٩ .

(٤) الصافات : من الآية ٩٧ .

يقولون له ﴿ لَئِن لَّمْ تَنْتَه يَنْبُوْحُ لَتَكُوْنَنَّ مِنَ الْمَرْجُوْمِيْنَ ﴾ (١)

وما أسرع ما يمتدُّ التهديدُ والوعيدُ والبطشُ والتعذيبُ إلى من آمن مع موسى، وإلى أهلهم وذريهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَخْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِيْنَ اِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

ولما ألقى السحرةُ ساجدين، وأعلنوا إيمانهم بربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون - اعترافاً برسالتهما، وإيماناً بدعوتهما - توعدهم فرعون قائلاً: ﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ اَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ اِنَّهُ لَكَبِيْرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَا تُقَطِّعْ اَيْدِيَكُمْ وَاَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَّلَا صَلِّبْنٰكُمْ فِيْ جُدُوْع النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ اِيْنَا اَشَدُّ عَذَابًا وَّابْقٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٣)

فأجابوه بلسان الإيمان قائلين: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ اِنَّا اِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُوْنَ ﴿٢٧﴾ اِنَّا نَطْمَعُ اَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبِّنَا حَطَبِنَا اَنْ كُنَّا اَوَّلَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ (٤)

وما أسرع ما تمَّ التأمُرُ على قتل موسى نفسه ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُوْنِي اَقْتُلْ مُوسٰى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ اِنِّيْ اَخَافُ اَنْ يُبَدِّلَ دِيْنَكُمْ اَوْ اَنْ يُظْهِرَ فِي الْاَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٥)

(١) الشعراء : من الآية ١١٦ .

(٢) غافر : ٢٥ .

(٣) طه : ٧١ .

(٤) الشعراء : ٥٠ ، ٥١ .

(٥) غافر : ٢٦ .

لم ترح الحجة منطق موسى عليه السلام أبداً، حتى في لحظات الكيد والتأمر عليه، فيستعيد بالله من كل متكبر، ويحدد علة التكبر التي تنتهي إليها جميع أسباب الكبر والبغي والتسلط ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (١)

إن المؤمن - دائماً - صاحب حجة بيّنة، وانظر إلى مؤمن آل فرعون وهو يُنكر على قومه التأمر على موسى وقتله؛ لترى منطقَه وحجته.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢)

ولكن الباطل - حيث كان - عشوم، مستبد ظالم، تمل في السلم، بطري، لا تُردعه إلا أسلحة الحق في أيدي المؤمنين، ولا يُدّد ظلماته إلا ظهور الإيمان وعودة اليقين.

\* \* \*

لقد رأينا موسى عليه السلام وقد بلغ رسالة ربه، وخاطب فرعون وقومه بآيات الله البيّنات، ورأينا كيف قوبلت دعوته كما قوبلت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم من قبله، ورأينا الاستدلال بآيات الله في الدعوة إليه، وامتد بنا الحديث في دعوة موسى إلى موقف فرعون وجحوده وبغيه وفساده، وهو موقف قوبل بأخذ المكذّبين والانتقام منهم، كما

(١) غافر : ٢٧.

(٢) غافر : ٢٨.

أخذَ المكذوبون من قبل؛ تحقيقاً للحق وإزهاقاً للباطل.

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ<sup>ط</sup> فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَمِشَرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٦٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَهْتُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

وجاءت الرسالة الخاتمة فرأينا الحديث عن الكون - كداعٍ إلى الله وهادٍ إليه - يتسع ويمتد، حتى لتكاد - وأنت تقرأ القرآن الكريم - ترى نفسك في رحلة ربانية وسياحة إيمانية لا ينقضي عجب التأمل فيها!

لقد ازداد دور الكون عمقاً في الدعوة إلى الله منذ الرسالة الخاتمة، وتآخت فطرة الدين مع فطرة الكون، ودخل الإنسان - بأمر الدين - هذه الساحة الواسعة متأملاً باحثاً متدبراً، فتصاعدت نتائج العلم منذ نُودي بالني الأمي ﴿ أَقْرَأْ ﴾.

جاء عصرُ الرسالة العالمية، فجاءت معجزتها كتاب ﴿ عَزِيزٌ ﴿١٦٩﴾ لَا يَأْتِيهِ

(١) العنكبوت : ٤٠.

(٢) آل عمران : ١٣٧-١٣٩.

الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١﴾

فاتسقت المعجزة مع الرسالة، وعبرت عن خصائصها، رسالة عالمية تمتد مع الزمان والمكان، فجاءت المعجزة - كذلك - ممتدة لا تنقطع، محفوظة بحفظ من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إن المعجزات - من قبل - لا يتأثر بها إلا من رآها، أو عاش في عصرها، ولم يضمن لرسالات الأنبياء من قبل أن تُذكر على حقيقتها، وأن يعرف الناس معجزاتها، إلا القرآن الكريم، الذي آمن الناس به، فأمنوا برسالات الأنبياء جميعاً، وصدقوا بمعجزاتهم « فِيهِ نَبَأٌ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبْرٌ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ » (١)

بهذا الكتاب تحدّد السمت الكامل للرسالات، كما تحدّدت أصول الدعوة ووسائلها، وكان مما عرفناه في وسائل الدعوة إلى الله: أن آيات الله - في السماوات والأرض - اتخذها رسل الله طريق هداية وسبل تبصرة، من نوح إلى إبراهيم، إلى موسى، وعيسى ابن مريم الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ومبشراً برسالة محمد ﷺ.

وجرى الاستشهاد بآيات الكون على ألسنة الرسل كدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وهو الأصل الذي قامت عليه دعوات الرسل جميعاً.

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٢)

ورأينا - مع الزمن الممتد - بعض آيات الله في الآفاق، وكلما امتد الزمن زاد

(١) فصلت : من الآية ٤١، الآية ٤٢.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) الشورى : من الآية ١٣.

دور الكون كوسيلة فطرية في الدعوة إلى الله تعالى.

وتجلى عظمة هذا الدين في كل عصر بوسائله؛ لأن الكون مُعجَزٌ في بساطته وعمقه، فللناس - مع اختلاف وسائلهم - مع الكون لقاء، وتجلى لهم - بمقدار وسائلهم فيه - آيات وآيات، ولكنهم - مع الزمن - يختلفون، فمن متدبرٍ خاشع القلب، ومن لاهٍ غافلٍ، ينشد لذة عاجلة، ولا يزيد.

ويتجلى هذا الدين بعمق آياته في عصرنا هذا - وهو ما يُسمى عصر العلم - لما أتبع لهذا العصر - بوسائل البحث - أن يرى من دقة الصُّنع، وعظمة التدبير ما تخشع له العقول.

فيا لها من عظمة عندما نرى معجزة الدعوة العالمية في هذا الكتاب، ونرى هذا الكتاب يمضي بنا في رحلة كونية نرى فيها خلق الله، فنؤمن به، ونعرفه فنخشاه، ونخشاه فتتوفر بيننا أسباب السلام والأمن، فنحقق ما نادى به ﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(١)</sup>

والتعبير في الآية الكريمة بلفظ ﴿ النَّاسَ ﴾ على الجمع، بدلاً من لفظ (الإنسان) على المفرد، أصرح وأوضح في الدلالة على أن الإسلام قد أنزله الله طبق فطرة الإنسان فرداً وجنساً، قبائل وشعوباً، أفراداً وجماعات.. فلو كان التعبير (فطرة الله التي فطر الإنسان عليها) لكان هناك محل للتساؤل عن المقصود بـ (الإنسان)، أهو آدم عليه السلام؟ أم نسله؟ أي: هل أداة التعريف في (الإنسان) للعهد أم للجنس؟ وهل الإسلام دين الفرد أو دين الجماعة؟ أما التعبير في الآية بلفظ الجمع فقد منَعَ هذا التساؤل، وأوصد

(١) الروم : ٣٠.

دونه الباب؛ إذ قد أفاد أن الناس - على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم - يجدون تمام تحقيق فطرتهم في دين الله، دين الإسلام.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾  
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي  
الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴿١﴾

إن القرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ خاتم الرسل يمضي بنا في رحلة واسعة في أعماق الكون، حتى وهو يُشبه أعمال الناس وأحوالهم يختار لنا التشبيه من صور حية أمام أعيننا.

انظر إليه وهو يتحدث عن أعمال الكافرين التي يُظنُّ أنها تنفعهم.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُم كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ تَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ  
لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١﴾ ﴿١﴾

وعندما يتحدث عن أعمالهم الخبيثة التي ليس فيها شائبة خير، ماذا يقول؟

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ  
سَحَابٌ مَّظْلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِ يَرِبْهَا وَمَنْ لَّمْ  
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿١﴾ ﴿٢﴾

وعندما يتحدث عن الدنيا وزوالها، وسرعة انقضائها، يختار لها تشبيهاً نراه

(١) الفرقان : ١ ، ٢ .

(٢) النور : ٣٩ .

(٣) النور : ٤ .



أن نحيط علماً بدقائق الصُّنْع في كُلِّ ما رأينا ؟

لا وربِّي، دون ذلك علومٌ وعلومٌ ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١)

رحلة قرآنية رأينا فيها الإحياء والإماتة، نشهد أثرهما، ولا نعرف سرهما، نرى أثرهما في كثير مما حولنا، في دورات متتابعة ﴿ مُخْرِجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجِ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ (٢)

والحديثُ عن آيات الله في الآفاق والأنفس تجده في كتاب الله وَعَلَّمَكَ بِمَنْدُ فِي أبعاد السماوات والأرض، ويطوفُ بين المشرق والمغرب..

يَتَحَدَّثُ عَنِ السَّحَابِ الْمَسْخَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وإنزال الماء من السماء بقدر، وإخراج النبات، وإنشاء الجنات من النخيل والأعناب..

يَتَحَدَّثُ عَنِ رَفْعِ السَّمَاوَاتِ بِأَعْمَدٍ، وتسخير الشمس والقمر إلى أجل مسمى.

يَتَحَدَّثُ عَنِ الْجِبَالِ وَالْوَاهِجِ، ومصيرها، وعن الناس والدواب والأنعام..

يَتَحَدَّثُ عَنِ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وإرسال الرياح بشراً بين يدي رحمته..

يَتَحَدَّثُ عَنِ بَدَايَةِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ، وامتداد الرزق من السماء والأرض بفضل الله ورحمته.

يَتَحَدَّثُ عَنِ تَسْخِيرِ الْبَحْرِ، وما يحمل على ظهره من الجوار المنشآت، وما فيه من لحم طري، ومن حلية ومتاع..

(١) الإسراء : من الآية ٨٥.

(٢) الأنعام : من الآية ٩٥.

يَتَحَدَّثُ عَنْ بَدَايَةِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ حَدِيثًا مُفْصَلًا يَقِفُ الْعِلْمُ أَمَامَهُ خَاشِعًا مُتَدَبِّرًا، ولم تكن وسائله - عند نزول القرآن - تستطيع أن تُبَصِّرَ ما يُقَدَّرُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَالْإِنْسَانُ يَتَدْرَجُ فِي خَلْقِهِ مِنْ نَظْفَةٍ، إِلَى عِلْقَةٍ، إِلَى مِضْغَةٍ، إِلَى عِظْمٍ يُكْسَى لَحْمًا.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣٠﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُظْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٣٢﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴿ (١)﴾

ويُحَدِّدُ الرَّسُولُ ﷺ هَذِهِ الْمَرَاهِلَ بِالْيَوْمِ تَحْدِيدًا تَقْصُرُ عَنْهُ عُلُومُ عَصْرِهِ وَزَمَانِهِ !!

فَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ - قَالَ: «إِنْ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ... الْحَدِيثُ» (٢)

وَتُقَدِّمُ الْحَقِيقَةَ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ وَبَيَانِ السَّنَةِ الْمَطْهُرَةِ فِي بَسَاطَةِ مُعْجَزَةِ تَنَائِي عَنْ التَّعْقِيدِ، تَسْعُ النَّاسَ جَمِيعًا مَعْرِفَةً وَعِلْمًا، وَإِيمَانًا وَيَقِينًا.

وإِعْجَازُ الْقُرْآنِ فِي بَسَاتِهِ وَهُوَ يُخَاطَبُ النَّاسَ بِخُطَابٍ وَاحِدٍ، يُخَاطَبُهُمُ بِالْحَقَائِقِ فِي لَفْظٍ يَسَّعَ عَامَّتَهُمْ وَخَاصَّتَهُمْ، دُونَ حَاجَةٍ مَا إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمْ، الْخَاصَّةُ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ أَعْلَى كَلَامٍ وَأَعْلَاهُ، بِمَنْطِقِ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالْعَامَّةُ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ

(١) المؤمنون : ١٢ - ١٤ .

(٢) متفق عليه .

أمام أيسر كلام وأغنا، وهو يخاطبهم بما تحتمله عقولهم.

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ  
تَخَشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي  
بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿١٣﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

\* \* \*

(١) الزمر : ٢٣

## ثالثاً: سنن الله في خلقه

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ سُنَنًا لَا تَبَدُّلُ وَلَا تَحْوِيلُ.

والأنبياء - وهم دُعاة إلى الله - يُبَصِّرون الناس بهذه السنن؛ ليكونوا على علم بتناجج أعمالهم، وعلى بصيرة بعاقبة من كانوا قبلهم، ممن كذب بآيات الله وصدف عنها؛ لتكون لهم عبرة، وليحسنوا اتباع ما جاءهم به الأنبياء.

ولا عُذر لأحد بعد بيان، ولا حجة له بعد إرسال الرسول، وإنزال الكتاب.

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٦٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴿١٦٧﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٦٨﴾ (١)

إن سنن الله - التي قد خلقت في الأولين - قد بينت للناس وسيقت لهم في آيات تُذَكِّرُ وتُبَصِّرُ، وتُنذِرُ من اتبع سبلَ الباطل، وركن إلى الظالمين، وكذب بالحق، وضل عن سواء السبيل.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

﴿ ١٧٧ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ ١٧٨ ﴾ ﴿<sup>(١)</sup>

ودعوة الرسل الكرام لا تُقَابَلُ إلا بالصدق واليقين، ومن كذب الرسل حَقَّ عليه وعيدُ الله، وهلك مع الهالكين، وتلك سُنَّةُ الله في الأولين وسُنَّتُهُ في الآخرين.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿ ١٧٩ ﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿ ١٨٠ ﴾ ﴾<sup>(٢)</sup>

وما من أمرٍ من شئون الخلق إلا وفيه إرشادٌ من الخالق تستقيم به الفطرة ولا تميل، ويُهدى به الناسُ إلى صراطٍ مستقيم. والناس مُطالبون أن يُقيموا وجوههم للدين القيم، وأن يُخلصوا دينهم لله من قبل أن يأتي يومٌ لا مردَّ له من الله.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴿ ١٨١ ﴾ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَئِيمِ مِن قَبْلُ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿ ١٨٢ ﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ يَمُدُّونَ ﴿ ١٨٣ ﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿ ١٨٤ ﴾ ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

(١) آل عمران : ١٣٧، ١٣٨

(٢) فاطر : ٤٢، ٤٣

(٣) الروم : ٤٢ - ٤٥

الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَىٰ اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۗ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ (١)

هذه الآيات البيّنات تُتلى على الناس، ويرى الناس دلالته في مصائر الأمم وعاقبة الأمور، يرون تأويلها في نتائج الأعمال ومدولة الأيام، بلا مُحاملة أو مُحاباة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ دَمَرُوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ (٢)

وقد جعل الله لكل شيءٍ أجلاً، فلا تُقبل توبة قوم وبأس الله يأتيهم، ولا ينفع إيمان ناسٍ والموت يقع بهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ۖ آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ۗ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۗ سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۗ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣)

\* \* \*

إنَّ سُنَنَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ مِنْ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ. والدعوة إلى الله تعالى بهذه السُنن دعوة إلى الاستقامة، بأخذ الأسباب المحققة لها، والبُعد عما يُنافيها، أو يصرف عنها. فالذين يرون سُنَنَ اللَّهِ فِي الظالمين يَحْتَنِبُونَ الظلم؛ حتى لا يُصيبهم ما أصابهم - أو هكذا يجب أن يكونوا - فإن أبوا إلا الظلم وقعت بهم العبرة، وكانوا عظةً لغيرهم.

(١) لقمان : ٢٢ - ٢٤.

(٢) محمد : ١٠٠.

(٣) الأنعام : ١٥٨.

وَكَمْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ آيَاتٍ تَحَدَّثُ عَنْ مَصَائِرِ الظَّالِمِينَ، وَتُحذِّرُ مِنَ الظُّلْمِ  
وَالرُّكُوعِ إِلَى أَهْلِهِ ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ  
دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١)

ومن قبل هذه الآية - من سورة هود - ترى مصائر أهل القرى ممن كذبوا  
الرسول، وفي غاية أمرهم - جميعاً - تسمع قول الله ﷻ: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى  
نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِمَّا قَابَئُتْ وَحَصِيدٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ  
فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ  
﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ  
﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢)

سنة لا تتخلف ولا تبدل، أن « يُؤَخِّدَ الظَّالِمَ بِظُلْمِهِ »، وأن « يَحِقَّ الْمَكْرُ  
السَّيِّئُ بِأَهْلِهِ ».

وكم من ناسٍ غفلوا عن هذه السنن، فنقضوا العهود، وخانوا الأمانات،  
واستدرجوا من حيث لا يعلمون - حين فتح الله عليهم أبواب كل شيء - فظنوا أن  
الخيرات قد أسرع إليهم، وأنهم - بما أعطوا - مكرمون، حتى إذا فرحوا بما أوتوا  
قُطِعَ دَابِرُهُمْ، ومضت سنة الله فيهم كما تمضي في غيرهم.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ  
إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ ﴿١١٢﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ

(١) هود: ١١٣.

(٢) هود: ١٠٠ - ١٠٢.

الَّذِينَ ظَلَمُوا وَآلَحْمُدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴿١١﴾

وَكَمْ مِنْ نَاسٍ أَعلنوا - قبل أن تصل النعمة إليهم - أنهم سيكونون بها أوفياء أتقياء، يُخضعون كل شيء لطاعة ربهم، فلما قامت الحجّة عليهم، وسِقت النعمة إليهم، فَرِحوا بما هم فيه، وظلموا أنفسهم، فمضت فيهم سنة الله كما مضت في الأولين.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۗ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١٦﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۗ وَلَا تَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۗ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ ۗ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۗ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١٨﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿١٩﴾ ﴿١٢﴾

\* \* \*

إن العلم بسُنن الله في خلقه من أعظم الدوافع لطهر النفوس، واستقامة السلوك، بل من أثرها تحقيق نهضة شاملة تقوم على العلم بمدلوله الواسع، بل بمفهومه الساطع. العلم بحقيقة الحياة وغايتها..

(١) الأنعام : ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) فاطر : ٤٢ إلى آخر السورة .

العلم الذي يُحَقِّقُ معرفةَ الخالق، والبرِّ بالمخلوق.

إن معرفة السنن الإلهية - في تقدير الأشياء وتدبيرها - يفتحُ بابَ البحث والنظر والتدبُّر.

وعندما تُعرَفُ خصائص الأشياء، ويقفُ الإنسانُ فيها على دِقَّةِ الصُّنْعِ، وعظمةِ التقدير، يُفَتِّحُ القلبَ لأسبابِ الإيمان واليقين.

والكون كله تدبُّره سننُ الله، وتبدو فيه حكمته، فما من شيءٍ توجهَ نظركَ إليه إلا وتراه بمضي وَفَقَ سننِ إلهيةٍ لا تتبدَّلُ ولا تتغيَّرُ.

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبِئِي هَلْآ أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾<sup>(٣)</sup>

هذا الاتساق المعجز، والانسجام المحكم، والتقدير القائم في كل شيء، بلا اختلاف أو تفاوت ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴾<sup>(٤)</sup>، هذا كله مجال واسعٌ للداعية يُقيمُ منه أدلته النابضة بالحياة، والناس يرون صدق ما يقول في واقع محسوس مشاهد، وتقدُّم العلم يزيد الأمر قوةً ورسوخاً، ويدعو إلى الإيمان بأدلة

(١) يس : ٤٠ .

(٢) القمر : ٤٩ .

(٣) طه : ٥٠ .

(٤) الملك : من الآية ٣ .

تفصيلية تُرى في كل شيء.

وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

\* \* \*

والآيات الكونية لها مكانة خاصة في الدعوة إلى الله في هذا العصر، عصر العلوم الكونية التي كشفت الإنسان بها ما كشف من أسرار الفطرة، فطرة الكون، فبلغ من القوة المادية ما بلغ، وإن لم يرع في استثمارها واستغلالها ما شرع الله له.

والقوة إذا انطلقت من قيود الشرع الإلهي انصبت مكارهها وويلاتها على الإنسان نفسه، كما رأينا في الحريين العالميتين اللتين كانت أخراهما شرّاً من أولاهما أضعافاً مضاعفة، والتي لم يخرج العالم منها إلى سلم، ولكن إلى هُدنة استمرت رُبْع قرن، زادت فيها القوى التي أطلقها العلم زيادةً مُخيفَةً؛ ليقف العالم بما اليوم على حافة الهاوية. (١)

وعندما ندعو إلى معرفة السنن الإلهية في الكون إنما نرجوها لخير الإنسان، ولا خير للإنسان إذا جحد الناس - وهم يرون آيات الله أمام أعينهم - حقّ من دبرٍ وقدر، وأعطى كُلَّ شيءٍ خلقه ثم هدى، وحقّه تعالى أن يُعبَد، ولا يُشرك به شيئاً.

وهنا المجال الحي للداعية، مجال تنبعث فيه النفس بفكرٍ وعاطفة، مجال فيه إشراق ونور، وفيه عبر وعظات، وفيه معرفة ساطعة منتصرة بسلطان الحجّة والدليل.

ومن سنن الله في الكون إلى سنن الله في النفس والمجتمع، إلى آيات الله المتحدثة عن ذلك، كله في إجمال أو تفصيل تزخر نفسُ الداعية فيه بِمَدَدٍ لا ينقطع.

يقرأ آيةً من آيات الله مستورةً في كتابه، ويُبصرها قائمةً في نفسه وفي الكون من حوله.

(١) الإسلام في عصر العلم: ص ٢٤٥.

ترتفعُ النفسُ بما قرأت إلى آفاق، وتشاهد في الآفاق آيات يزدادُ بها الحقُّ رسوخاً في النفس، وترتفع رايته في حياة الناس، فيخسأ ظالمٌ، ويُصَفُّ مظلومٌ « ولا غرو أن يتطابق القرآن والفطرة، وتتجاوب كلماتها وكلماته، وإن كانت كلماتها وقائع وسُنناً، وكلماته عبارات وإشارات »<sup>(١)</sup>

ذلك بيان للحقِّ ودعوة إليه، والحق مطلب فطري قامت به السماوات والأرض، وهو الثابت المستقر الذي لا يتغيَّر، والنافع الذي يمكثُ في الأرض، وغيره زَبَدٌ يذهبُ جفاءً.

والحقُّ تدعو إليه سُننٌ لا تبدلُ ولا تتحوَّل، ويدعو إليه كتابٌ محفوظٌ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والله هو الحق، وقوله الحق، وخلَقَ السماوات والأرضَ بالحق، وأنزل الكتابَ بالحق.. فماذا بعد الحق إلا الضلال !؟

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ ﴾<sup>(٢)</sup>

وهذا الاتساق في التعبير عن الحق في كلمات، والتعبير عنه في آيات الله القائمة في الآفاق والأنفس، حَرِيٌّ أَنْ يُحَقَّقَ فِي الْإِنْسَانِ رُشْدَهُ، فلا يحكم - لنفسه، ولا لغيره - إلا بالحق.

والحق - كما ترى - مرجعه واحدٌ في كل شيء.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۗ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ۗ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَنَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۗ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۗ ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) الإسلام في عصر العلم : ص ٢٢٢.

(٢) فصلت : من الآية ٥٣.

(٣) الأنعام : ٧٣.

فهل ينتفع بما خلق الله في السماوات والأرض، وما خلق الله ذلك إلا بالحق؟

ويُرفض قوله فيما شرع لعباده، وقوله الحق؟

ما رأينا أحداً من الجاحدين نَعِمَ بشيء من غيرِ نعمِ الله التي خلق لِعبادِهِ، وكل شيء مسخر بأمره، جارٍ بتقديره وعلمه.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾<sup>(١)</sup>

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾<sup>(٣)</sup> قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ﴾<sup>(٤)</sup> سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾<sup>(٥)</sup> بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾<sup>(٦)</sup> مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾<sup>(٧)</sup> عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾<sup>(٨)</sup>

أرأيت ما تؤديه سنن الله في الدعوة إليه؟ وما تحققه في النفس من خشية ويقين؟

\*\*\*

(١) فاطر: ١٣.

(٢) المؤمنون: ٨٥ - ٩٢.

وإذا كان الحديث عن الكون وآياته حديثاً عن السنن العامة، وتلك قد بدت من قبل، فإن لبيان السنن الخاصة في حياة الناس وأحوالهم أثرٌ بالغ في سلوكهم وأعمالهم، بل في دعوتهم إلى الله وإنابتهم إليه.

وذاك ما نريدُ بيانه هنا..

فمن سنن الله أن جعل بركات السماوات والأرض منوطة بإيمان الناس وتقواهم، والبركة ليست كما في أيدي الناس تزخرُ به الجيوبُ، وتفتنُ به النفوسُ، فذاك قد يتحول - في لحظة - إلى دمارٍ وخرابٍ، حين يقترن بالبغي والتسلط. وإنما البركة أمنٌ في يُسرٍ، وقناعة في عُسرٍ، ينعم الناسُ فيهما بالإيثار والحب، فيكثر القليل في أيديهم، ويعمُ الخير، ويزدادُ العطاء والنماء.. ولن يكون ذلك إلا بإيمان وتقوى.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

ومن سنن الله أن النعم تزدادُ بالشكر، وتنفرُ بالجدود والكفر.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي  
لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ  
كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾<sup>(٣)</sup>

يقول الإمام علي عليه السلام: « إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة

الشكر »

(١) الأعراف : ٩٦ .

(٢) إبراهيم : ٧ .

(٣) النمل: من الآية ٤٠ .

والشكر ليس مجرد كلمة يُردها الإنسان، وإنما هو إخضاع نعم الله لطاعة الله، حتى لا يرى الإنسان لنفسه فيها إلا ما يراه الله.

وعمق مدار معرفة الإنسان لنعم الله يكون شعوره بالشكر... ونعم الله لا تُحصَى ولا تُعدُّ ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾<sup>(١)</sup>

وشكر المؤمن لربه لا يتوقف أبداً؛ لأنه على أي حال كان فهو في نعمة تستوجب شكراً.

وكل نعمة أنعم الله بها تحمل للناس تبصرة وتذكرة تدعو إلى الشكر، وتعين عليه بما تحمله من دلائل الفضل والرحمة.

والناس إن هم أخضعوها لطاعة ربهم، وسخروها فيما أحل لهم، كانت نعمة عليهم في مقدماتها وعاقبتها، وإلا ذهبت وبقيت تبعثها.

وهذه النتيجة - في شكر النعمة أو كفرها - سنة مضت في الأولين، وتمضي - كذلك - في الآخرين.

﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۗ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ۖ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) إبراهيم: من الآية ٣٤، النحل: من الآية ١٨.

(٢) النمل: من الآية ٤٠.

(٣) الزمر: ٧.

والناسُ في أمورهم بين حالين: بين ضيق ينشدون المخرجَ منه، وبين نجاةٍ يذكرون فيه نعمةَ الله أو ينسون، فإن نسوا وبغوا - بعد أن منَّ الله عليهم - مضت سنةُ الله فيهم، وإذا ذكروا وشكروا، كان لهم جزاءُ الشاكرين.

والقرآنُ الكريمُ يُنيرُ الطريقَ أمامَ الناسِ، ويبيِّنُ لهم سننَ الله في حياتهم وأعمالهم ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾<sup>(١)</sup>  
 ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup>

إن السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤَادَ نِعْمٌ تَطْلُبُ الشُّكْرَ، وشكْرُها في إخضاعها لطاعة ربها، وهي شاهدةٌ على مَنْ أَرَادَهَا لغير ما خُلقت له.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾<sup>(٣)</sup> حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًىٰ لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٨﴾<sup>(٤)</sup>

(١) الأنفال : من الآية ٤٢ .

(٢) آل عمران : من الآية ١٤٥ .

(٣) فصلت : ١٩ - ٢٤ .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)

وكلُّ تيسيرٍ في أمرٍ، أو تأييدٍ بنصرٍ، نعمةٌ تأمرُ بالشكر، وتدعو إليه.

ومن الشكر الأيقع مع التيسير إعراضٌ وبغيٌّ، أو يتبع التأييد نسيانٌ وانحرافٌ يُنبئُ عن نُكرانٍ وجُحودٍ.

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكُرُونَ ﴿٣﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (٣)

والله يُذكرُ المؤمنين بِنِعْمِهِ؛ لتستقيم أمورهم بشكر المنعم.

﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣)

ولكن كثيراً من الناس - مع فضل الله عليهم - لا يشكرون.

(١) السجدة : ٧٨ .

(٢) الأنعام : ٦٣ - ٦٥ .

(٣) الأنفال : ٢٦ .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١)

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ

لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢)

والشكر لا بُدُّ أن يستغرق أمرَ الإنسان كله، فيُدرك القلبُ حقيقةَ النعمة: ويلهجُ اللسانُ بالثناء على المُنعِم، وتؤدِّي الجوارحُ دورَها في التعبير بإخضاع النعمة لطاعة الله، وحُسن الإخلاص له، وصدق التوجه إليه.

عندئذ يكون الفوزُ، ويكون الجزاءُ من الله الشَّاكِر.

﴿ وَمَنْ يَفْقَرِ فَحَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَّاكِرٌ ﴾ (٣)

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ

مَشْكُورًا ﴾ (٤)

\* \* \*

أخي المسلم: استبصرِ بآيات ربِّك في جميع أمرِك. واعلم أن الله سنُّنا لا تبدلُ

ولا تتحوَّل.

فلا تؤخِّر عملَ اليومِ إلى الغد؛ فإنك لا تدري ماذا تكسبُ غداً.

وبادِرْ بعملِ الخيرِ كما أمرتَ قبل أن يُحَالَ بينك وبينه.

(١) سبأ : من الآية ١٣.

(٢) غافر : ٦١.

(٣) الشورى : من الآية ٢٣.

(٤) الإسراء : ١٩.

وُتِبَ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَلَا تَجْعَلُ الْأَمْلَ بِخُدْعِكَ بِطُولِ أَجَلٍ، فَيَفْحُوكَ الْمَوْتَ وَأَنْتَ عَلَى سُوءِ حَالٍ ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ (١)

وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِكَ، وَادْكُرْهُ وَلَا تَنْسَاهُ فِي سِرِّكَ وَعَلْنِكَ، وَاسْتَغْفِرْ لِرَبِّكَ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ الَّذِي يُمَرُّ بِكَ شَاهِدٌ عَلَيْكَ، وَلَنْ يَعُودَ، وَأَنَّ مَا أَخْبَرْتَ بِهِ - مِنْ وَعْدِ اللَّهِ - آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ لَأْتِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾  
وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ (٢)

\*\*\*

(١) المنافقون : من الآية ١١ .

(٢) العنكبوت : ٥ ، ٦ .